قف لحظة:

من مواقف الحسرة والندامة

في الدنيا ويوم القيامة

جمع وترتيب وتعليق وإخراج:

عبد السلام البسيوني

يا حسرة على العباد.. بقلم الخطاط السوري عدنان الشيخ عثمان

يقول الله تبارك وتعالى:

- **وأنذرهم يوم الحسرة؛ إذ قضي الأمر، وهم في غفلة، وهم لا يؤمنون!**
- **ويوم يعض الظالم على يديه؛ يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا***

يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانًا خليلًا*

لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني؛ وكان الشيطان للإنسان خذولًا!

ويقول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم فيما رواه أحمد، وأبو داود:

عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة!

مقدمة

لا يشك عاقل خبر الحياة وعركها أن لكل عمل حصادًا، حلوًا أو مرًّا، حريرًا أو شوكًا، راحة أو وجعًا، سرورًا أو غمًّا!

ولا يشك عاقل خبر الحياة وعركها أن الإنسان لا يجني إلا ما زرع، فلن تزرع جميلًا فينتج شرًّا، ولن تزرع شرًّا فتجني جنة عرضها السموات والأرض، وقديمًا قالت العرب: إنك لن تجني من الشوك العنب، وقديمًا أيضًا قال أبو الحسن الجرجاني:

إذا أنت لم تعمل وأبصرت حاصدًا ندمت على التفريط في زمن البذر

وكل عاقل خبر الحياة وعركها لحظ هذا في حصاد الخامل والنشيط، والعاجز والكيس، والمجتهد والمقصر، فلا يماري فيه إلا مكابر، يحيد عن الحق، ويصر على باطل، أو خلل!

ولا شك أن من النتائج ما يمكن تجاوزه، والصبر عليه، وتعويضه بجهد أكثر، وحسن ترتيب، وعزم وتصميم، ورغبة في الإصلاح والانطلاق، ومنها ما يستحيل تداركه، وإصلاحه، والتراجع عن عواقبه الوبيلة، وخساراته الثقيلة!

والخسارة في الدنيا تجبر بالصبر، وبالجد، وبذل المجهود، وبكسب ما هو أعلى من المفقود، لكن الأمر في الآخرة يختلف بالنسبة للأشقياء والمفاليس:

- فليس هناك رُجعى للدنيا للتعويض!
- وليس هناك وقت للتدارك، ولا عذر للتندم!
- وليس هناك عمل يجبر ويستر!
- وليس هناك شفعاء ولا وسطاء!
- وليس هناك مهرب من النار!
- وليس هناك قدرة على مواجهة ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون!
- وليس هناك مدى للعقوبة ولا نهاية، بل هي الخلود أبدًا!

لذا فإن القلوب تتقطع كمدًا، والأكباد تحترق أسفًا، والحسرات والزفرات تخرج من الجوف نارًا؛ حين يوقن المستكبرون والمعاندون، والمستبيحون والمنكرون، والمشركون، أنهم (ما لهم من الله من عاصم) وأنهم رُدوا إلى رب قوي، يأخذ بالذنب، ويقصم الجبابرة، ويذل الفراعنة، ويرغم أنوف الملاحدة...

كما سيتيقنون أنهم – مهما علت زفراتهم، وتواترت حسراتهم – فيها ماكثون، بعد أن عُمروا، وأعطوا الفرصة تلو الفرصة للتوبة والأوبة، فما زادهم العمر إلا صلفًا، واستكبارًا في الأرض، ومكر السيئ، ومحادة لله ورسوله، وحربًا على الإسلام وأهله، لذا فحق لهم التحسر، وحقت عليهم اللعنة، وحل بهم سوء المنقلب، و(عقبى الكافرين النار)!

وهذا البحث تأمل في المواقف التي تنطلق فيها حسرات الآدمين، ويعضون أيديهم أسىً وأسفًا، وجزعًا وندمًا في القيامة، مع مقارنات يسيرة مع مواقف الحسرة في الدنيا، وهي أهون وأخف!

وأسأله سبحانه وتعالى ألا أكون وإياكم من الذين يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم يوم القيامة، وأن يعاملنا بفضله لا بعدله، وأن يجعلنا من الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر، ويدخلنا رضوانه من غير سابقة حساب ولا عقاب، اللهم آمين.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدي رسول الله، الحبيب الشفيع، وعلى آله، وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

عبد السلام البسيوني

الدوحة/ الجمعة: 19 من محرم 1435

الموافق: 2013/11/22

رؤية لغوية

أصل الحسرة الانكشاف، ورجل حاسر: لا عمامة على رأسه. ورجل حاسر أيضًا: لا درع عليه ولا بيضة على رأسه. وامرأة حاسر – بغير هاء – إذا حسرت عنها ثيابها.

وفي الحديث الشريف: فحسر عن ذراعيه؛ أي أخرجهما من كميه.

وفي حديث أم المؤمنين المبرأة عائشة، رضي الله عنها: وسئلت عن امرأة طلقها زوجها وتزوجها رجل، فتحسرت بين يديه، أي: قعدت حاسرة، مكشوفة الوجه.

والحسرة: الكلال: ومنه: (لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون)، وفي التنزيل: (ينقلب إليك البصر خاسئًا، وهو حسير) قال الفراء: يريد: ينقلب صاغرًا!

وكذلك قوله عز وجل: (ولا تبسطها كل البسط؛ فتقعد ملومًا، محسورًا) قال: نهاه أن يعطي كل ما عنده؛ حتى يبقى محسورًا لا شيء عنده.

والحسرة: الندامة الشديدة على ما فات، أو: شدة التلهف، والحزن: أشد الندم، حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب، الذي لا منفعة فيه.

وقال عز وجل: (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أي حسرة وتحسرًا.

وأما الأسف فالمبالغة في الحزن والغضب. وأسف أسفًا، فهو أسف وأسفان وآسف وأسوف وأسيف، والجمع أُسفاء. وقد أسف على ما فاته، وتأسف أي: تلهف، وأسف عليه أسفًا أي غضب، وآسفه: أغضبه.

وفي التنزيل العزيز: (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ومعنى آسفونا: أغضبونا، وكذلك قوله عز وجل: (إلى قومه غضبان أسفًا). والأسيف والآسف: الغضبان، قال الأعشى رحمه الله تعالى:

أرى رجلًا منهم أسيفًا كأنما يضم إلى كشحيه كفًّا مخضبًا

ومما يصب في معنى الحسرة: أَسَى، أَوْب، تَرَح، حُزْن، شَجَا، شَجَن، غَمّ، كَآبَة، نَدَامَة، تَلَهُّف، وما شابه! وللاسم (مُتَحِسِّر): مُتَأَسِّف، مُتَحَيِّر، نادِم، يَقْرَعُ سنَّه نَدَمًا، وما شابه!

الحسرة في القرآن الكريم

ورد جذر (ح س ر) في المصحف الشريف اثنتي عشرة مرة، منها خمس مرات لكلمة حسرة.

وقد سمى الله تبارك وتعالى يوم القيامة أسماء كثيرة، منها: القارعة، والحاقة، والصاخة، والطامة الكبرى، ويوم الفصل، ويوم الدين، ويوم التغابن، ويوم الوعيد..

وهي أسماء شديدة مزلزلة، تخلع القلوب؛ نسأل الله تعالى أن نكون من الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون!

ومن أشد أسماء القيامة: يوم الحسرة، يقول تبارك وتعالى في سورة مريم عليها السلام: (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) مريم:39.

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان (باختصار مني):

الحسرة: أشد الندم، والتلف على الشيء الذي فات، ولا يمكن تداركه، والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد، أي: أنذر الناس يوم القيامة. وقيل له: يوم الحسرة؛ لشدة ندم الكفار فيه على التفريط، وقد يندم فيه المؤمنون على ما كان منهم من التقصير.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: (وهم في غفلة) أي: في غفلة الدنيا، معرضون عن الآخرة، (إذ قضي الأمر) أي: ذبح الموت.

قال البخاري رحمه الله في صحيحه، باب قوله تعالى: (وأنذرهم يوم الحسرة) حدثنا.... عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت – وكلهم قد رآه – ثم ينادى: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت – وكلهم قد رآه – فيذبح، ثم يقول:

يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: (وأنذرهم يوم الحسرة،؛ إذ قضي الأمر، وهم في غفلة) وهؤلاء في غفلة الدنيا (وهم لا يؤمنون)!

والحديث مشهور، متفق عليه، وقراءة النبي صلى الله عليه وسلم الآية بعد ذكره ذبح الموت تدل على أن المراد بقوله: (إذ قضي الأمر) أي: ذبح الموت، وفي معناه أقوال أخر غير هذا.

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: (وأنذرهم يوم الحسرة؛ إذ قضي الأمر) روي عن سيدي ابن مسعود أنه رضي الله تعالى عنه قال: ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت في الجنة، فيتحسر عليه.

وقيل: تقع الحسرة إذا أعطي كتابه بشماله.

(إذ قضي الأمر) أي فُرغ من الحساب، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة: هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت!

ثم يقال: يا أهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت!

فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت! ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأنذرهم يوم الحسرة؛ إذ قضي الأمر، وهم في غفلة، وهم لا يؤمنون) خرجه البخاري بمعناه عن ابن عمر، وابن ماجه من حديث أبي هريرة والترمذي عن أبي سعيد يرفعه، وقال فيه حديث حسن صحيح.

وورد في المعنى كذلك، قوله تعالى: (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله؛ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها....) الآية الأنعام:31.

وفي سورة الزمر يقول تعالى: (أن تقول نفس: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، وإن كنت لمن الساخرين....) الآية:65، وما بعدها..

وأخرج في فتح القدير للشوكاني، عن سيدي أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: في قوله تعالى: (يا حسرتا) قال: الحسرة: أن يرى أهل النار منازلهم في الجنة؛ فتلك الحسرة!

وفي التسمية ذاتها جعل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم هو الحسرة ذاتها – ظرفًا، أو سببًا، أو حالًا – قال تبارك وتعالى: (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين* وإنه لحسرة على الكافرين)!

قال في التحرير والتنوير: والمعنى: إنا بعثنا إليكم الرسول بهذا القرآن، ونحن نعلم أنه سيكون منكم مكذبون له وبه، وعلمنا بذلك لم يصرفنا عن توجيه التذكير إليكم، وإعادته عليكم؛ (ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة)، فقوبلت صفة القرآن التي تنفع المتقين، بصفته التي تضر بالكافرين؛ على طريقة التضاد، فبين الجملتين المتعاطفتين محسِّن الطباق.

والحسرة: الندم الشديد المتكرر على شيء فائت مرغوب فيه، ويقال لها التلهف، اشتقت من الحسر وهو الكشف؛ لأن سببها ينكشف لصاحبها بعد فوات إدراكه، ولا يزال يعاوده:

فالقرآن حسرة على الكافرين؛ أي: سبب حسرة عليهم في الدنيا والآخرة، فهو حسرة عليهم في الدنيا؛ لأنه فضح ترهاتهم، ونقض عماد دينهم الباطل، وكشف حقارة أصنامهم!

وهو حسرة عليهم في الآخرة؛ لأنهم يجدون مخالفته سبب عذابهم، ويقفون على اليقين بأن ما كان يدعوهم إليه هو سبب النجاح لو اتبعوه؛ لا سيما وقد رأوا حسن عاقبة الذين صدقوا به.

والمكذبون: هم الكافرون. وإنما عدل عن الإتيان بضميرهم إلى الاسم الظاهر؛ لأن الحسرة تعم المكذبين يومئذٍ، والذين سيكفرون به من بعد.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:

وإنه لحسرة على الكافرين، يعني التكذيب. والحسرة: الندامة.

وقيل: أي: وإن القرآن لحسرة على الكافرين يوم القيامة؛ إذا رأوا ثواب من آمن به.

وقيل: هي حسرتهم في الدنيا؛ حين لم يقدروا على معارضته عند تحديهم أن يأتوا بسورة مثله.

(وإنه لحق اليقين) يعني أن القرآن العظيم تنزيل من الله عز وجل؛ فهو (لحق اليقين)!

وقيل: أي حقًّا يقينًا ليكونن ذلك حسرة عليهم يوم القيامة. فعلى هذا (وإنه لحسرة) أي لتَحسّر، فهو مصدر بمعنى التحسر، فيجوز تذكيره.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (إنما هو كقولك: لعين اليقين، ومحض اليقين) ولو كان اليقين نعتًا لم يجز أن يضاف إليه، كما لا تقول: هذا رجل الظريف.

وقيل: أضافه إلى نفسه لاختلاف اللفظين.

(فسبح باسم ربك العظيم) أي فصل لربك؛ قاله ابن عباس.

وقيل: أي نزه الله تعالى عن السوء والنقائص.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله سبحانه: (وأنذرهم يوم الآزفة؛ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) 40:غافر، وقوله عز وجل: (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) فاطر:34.

وأشار إلى ما يحصل فيه من الحسرة في مواضع أخر، كقوله عز من قائل: (أن تقول نفس: ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله) الزمر:56!

وقوله تعالى: (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله؛ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: ياحسرتنا على ما فرطنا فيها) الأنعام:31!

وقوله: (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) البقرة:167، إلى غير ذلك من الآيات.

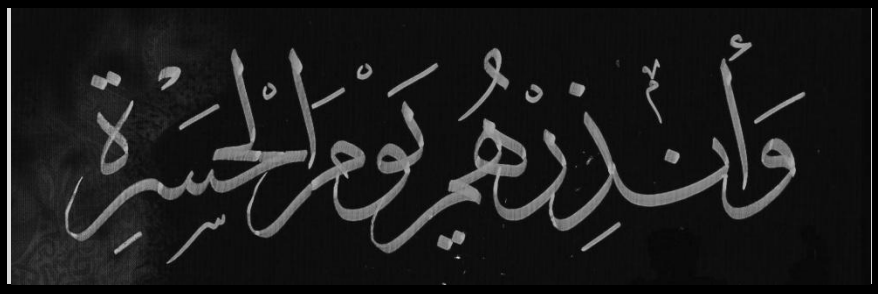

اسكتش بقلم أ. صباح الأربيلي

الدنيا قد تكون دار الغم والحسرة بالنسبة للمؤمن:

لا شك أن الدنيا مصدر وجع كثير للمؤمن، لكونها شيبت على الكبَد والكدر، وأن من لم يبال بجنة أو نار، وسؤالٍ وحساب سيستفرغ همته في إذهاب طيباته في الحياة الدنيا، باعتبارها منتهى غاياته!

روى مسلم عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ)، قال في المقاصد الحسنة: كان الحسن يقول: قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم: الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر؛ فالمؤمن يتزود، والكافر يتمتع، واللَّه إن أصبح فيها مؤمن إلا حزينًا، وكيف لا يحزن من جاءه عن اللَّه تعالى أنه وارد جهنم، ولم يأته أنه صادر عنها!؟

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله ورضي عنه: معنى هذا الحديث أن الدنيا مهما عظم نعيمها، وطابت أيامها، وزهت مساكنها فإنها للمؤمن بمنزلة السجن؛ لأنه يتطلع إلى نعيم أفضل وأكمل وأعلى!

وأما بالنسبة للكافر فإنها جنته؛ لأنه ينعم فيها، وينسى الآخرة، ويكون كما قال الله تعالى فيهم: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ، وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ، وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُم) والكافر إذا مات لم يجد أمامه إلا النار – والعياذ بالله – فكانت له النار؛ ولهذا كانت الدنيا – على ما فيها من

التنغيص والكدر والهموم والغموم – بالنسبة للكافر جنة؛ لأنه ينتقل منها إلى عذاب (القبر) إلى عذاب النار والعياذ بالله! فالنار؛ بالنسبة له بمنزلة الجنة!

ويذكر عن ابن حجر العسقلاني رحمه الله صاحب فتح الباري – وكان هو قاضي قضاة مصر في وقته – كان يمر بالسوق على العربة في موكب، فاستوقفه ذات يوم رجل من اليهود، وقال له: إن نبيكم يقول: (إن الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر) وكيف ذلك وأنت في هذا الترف والاحتفاء؟ وهو – يعني نفسه – في غاية ما يكون من الفقر والذل؛ فكيف ذلك؟

فقال له ابن حجر رحمه الله: أنا وإن كنت كما ترى من الاحتفاء والخدم فهو بالنسبة لي بما يحصل للمؤمن من نعيم الجنة كالسجن، وأنت بما أنت فيه من هذا الفقر والذل بالنسبة لما يلقاه الكافر في النار بمنزلة الجنة؛ فأعجب اليهودي هذا الكلام!

وفي صحيح الجامع وغيره عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إذا حضر المؤمنُ، أتتْه ملائكةُ الرحمةِ بحريرةٍ بيضاءَ، فيقولون: اخرُجي راضيةً مرضيًا عنك، إلى رَوْحٍ وريحانٍ وربٍّ غيرِ غضبانٍ، فيخرج كأطيبِ رِيحِ المسكِ؛ حتى إنه لينا ولَه بعضُهم بعضًا؛ حتى يأتوا به بابَ السماءِ، فيقولون: ما أَطيبَ هذا الريحِ التي جاءتْكم من الأرضِ! فيأتون به أرواحَ المؤمنين، فلهم أشدُّ فرحًا به من أحدِكم بغائبِه يقدُم عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلانٌ؟ ماذا فعل فلانٌ؟ فيقولون: دَعوه فإنه كان في غَمِّ الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم فإنهُ قد ماتَ؟ قالوا: ذُهِبَ به إلى أُمِّه الهاويةِ!

وإنَّ الكافرَ إذا حضر أتتْه ملائكةُ العذابِ بمسحٍ، فيقولون: اخرُجي ساخطةً مسخوطًا عليكِ، إلى عذابِ اللهِ، فيخرج كأنتَنِ ريحِ جِيفةٍ حتى يأتوا بها بابَ الأرضِ، فيقولون ما أَنتنَ هذه الريحِ؟ حتى يأتوا بها أرواحَ الكفارِ. نعوذ بالله من الخذلان.

الدواء النبوي لعلاج أدواء الغم والحسرة:

درج التخبط البشري على اختراع أدوية للغم والحسرة عجيبة، كالاستغراق في السكر والمخدرات، أو في العنف، أو اللجوء للانتحار، أو التشرد، وترك كل شيء، والخروج من المسؤولية نهائيًّا، والحياة على الهامش، أو المزج بين هذا كله جرعة واحدة!

- **لكن محمدًا صلى الله عليه وسلم يربط المسلم دائمًا – في سرائه وضرائه، ومسراته وحسراته بالله رب العالمين؛ ففي مسلم وغيره عن سيدي صهيب رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له)!**

- **وكان يلجأ إلى الله تعالى يستعينه ويسترحمه، ويدعو المؤمنين لمثل ذلك، ففي الجامع الصغير عن سيديّ عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا: أنه (كانَ إذا نزلَ بِه همٌ أو غَمٌ قالَ يا حَيُّ يا قيُّومُ برحمتِك أستغيثُ)!**

- **وفي الجامع الصغير عن سيدتي أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها مرفوعًا: (من أصابه غم أو هم أو سقم أو شدة فقال: الله ربي لا شريك له؛ كشف ذلك عنه)**

- **وفي السلسلة الصحيحة عن سيدتي عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها مرفوعًا: (إذا أصاب أحدَكم غمٌّ أو كَربٌ فليقُلِ: (اللهُ ربِّي لا أُشرِكُ به شيئًا)!**

- **وفي السلسلة الصحيحة وغيرها عن سيدي ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (ما أصابَ عبدًا قطُّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللَّهمَّ إنِّي عبدُك، ابنُ عبدِكَ، ابنُ أمَتكَ، ناصيَتي بيدِكَ، ماضٍ فيَّ حكمُكَ، عدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ: أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هو لك، سمَّيتَ به نفسكَ، أو أنزلتَهُ في كتابِكَ، أو علَّمتَهُ أحدًا من خلقِكَ، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندِكَ، أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدْري، وجلاءَ حزني وذهابَ همِّي وغمِّي إلَّا أذهب اللهُ همَّهُ**

وأبدلَهُ مكانَهُ فرحًا) قالوا: أفلا نتعلمْهنَّ يا رسولَ اللهِ؟ قال: (بلَى ينبغي لمنْ سمِعهُنَّ أنْ يتعلمهُنَّ)

- ومن الأدوية النبوية مواساة المؤمن بإيمانه بالقدر، ورضاه بما يجريه الله تعالى عليه، ففي صحيح الجامع عن سيدي أبي سعيد رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (ما يُصِيبُ المسلِمَ من نصَبٍ، ولا وصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذًى، ولا غَمٍّ، حتى الشوْكةَ يُشاكُها، إلَّا كفَّرَ اللهُ بِها من خطاياهُ).

- ومن الأدوية النبوية في صرف الحزن والغم والحسرة الجهاد؛ ففي تفسير ابن كثير بسند حسن مرفوعٍ ... (فأدُّوا الخيطَ والمخِيطَ، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تَغْلُوا؛ فإنَّ الغُلولَ نارٌ وعارٌ على أصحابِه في الدنيا والآخرةِ، وجاهدوا الناسَ في اللهِ القريبَ والبعيدَ، ولا تُبَالُوا في اللهِ لومةَ لائمٍ، وأقيموا حدودَ اللهِ في الحضرِ والسفرِ، وجاهدوا في سبيلِ اللهِ، فإنَّ الجهادَ بابٌ من أبوابِ الجنةِ عظيمٌ، يُنجِّي به اللهُ من الهمِّ والغمِّ).

قال الإمام ابن القيم عليه رحمات الله ورضوانه في الزاد/ فصل في هديه صلى الله عليه وسلم في علاج الكرب والهم والغم والحزن:

- في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع، ورب الأرض رب العرش الكريم).

- وفي جامع الترمذي عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث).

- وفيه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أهمه الأمر، رفع طرفه إلى السماء فقال: (سبحان الله العظيم) وإذا اجتهد في الدعاء قال: (يا حي يا قيوم)!

- **وفي سنن أبي داود عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت)!**

- **وفيها أيضًا عن أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب، أو في الكرب؟ الله ربي لا أشرك به شيئًا)!**

- **وفي مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أصاب عبدًا هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي. إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحًا)!**

- **وفي الترمذي عن سيدي سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له)!**

- **وفي سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة فقال: (يا أبا أمامة مالي أراك في المسجد في غير وقت الصلاة)؟ فقال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله فقال: (ألا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى دينك)؟ " قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: (قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن، والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال)، قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عز وجل همي وقضى عني ديني!**

- **وفي سنن أبي داود عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجً، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب).**
- **وفي المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وقد قال تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة) البقرة:45.**

هذه الأدوية تتضمن خمسة عشر نوعًا من الدواء (كما ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في الزاد) فإن لم تقو على إذهاب داء الهم والغم والحزن، فهو داء قد استحكم وتمكنت أسبابه، ويحتاج إلى استفراغ كلي.

الأول: توحيد الربوبية. الثاني: توحيد الإلهية. الثالث: التوحيد العلمي الاعتقادي.

الرابع: تنزيه الرب تعالى عن أن يظلم عبده، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك.

الخامس: اعتراف العبد بأنه هو الظالم. السادس: التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء، وهو أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات الحي القيوم. السابع: الاستعانة به وحده. الثامن: إقرار العبد له بالرجاء. التاسع: تحقيق التوكل عليه، والتفويض إليه والاعتراف له بأن ناصيته في يده، يصرفه كيف يشاء، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه. العاشر: أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان، وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات والشهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفي به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه. الحادي عشر: الاستغفار. الثاني عشر: التوبة. الثالث عشر: الجهاد. الرابع عشر: الصلاة. الخامس عشر: البراءة من الحول والقوة، وتفويضهما إلى من هما بيده.

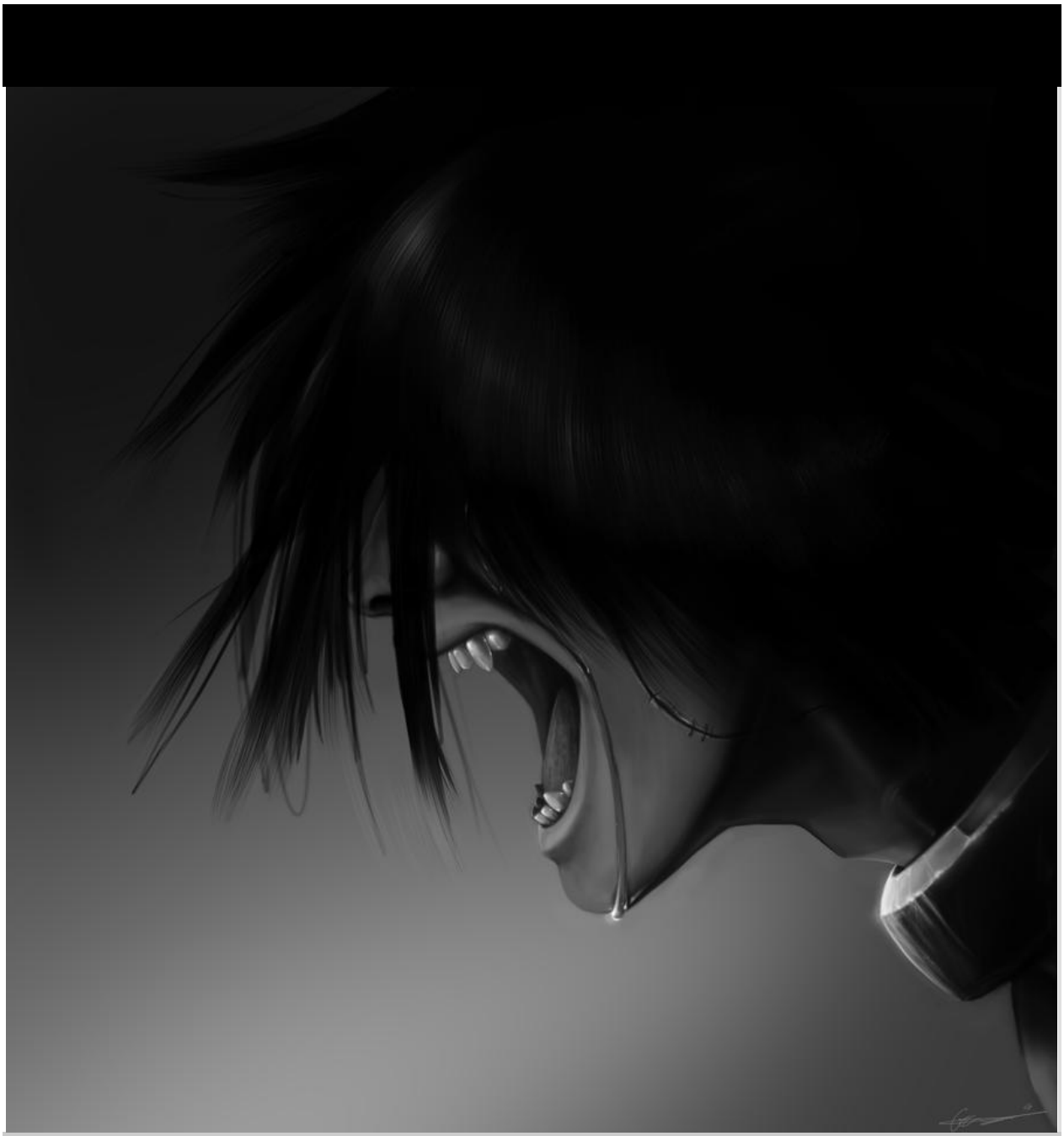

من مواقف الحسرة في الآخرة:

من مواقف الحسرة في الآخرة:

للحسرة في الآخرة مواضع ومواقف، يتمنى فيها ظالمو أنفسهم، أن لو قرضوا بالمقاريض، وأن لم يسقطوا فيما سقطوا فيه – اللهم لا تجعلنا منهم، ولا آباءنا وذرارينا وأزواجنا وعلماءنا وأحبتنا – ومن هذه المواقف:

الحسرة عند خروج الروح:

هذا أول مواقف الحسرة في الآخرة، والعياذ بالله رب العالمين، وهو بداية البلاء على العبد المفرط في جنب الله تعالى؛ تفريط كفر ومروق.

يقول الله تبارك وتعالى: (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) محمد:27.

وفي الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. فقلت: يا نبي الله أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت! فقال صلى الله عليه وسلم: ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه).

وفي حديث أحمد وأبي داود وغيرهما، عن سيدي البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ بصره، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة: اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها...

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الآخرة، وإقبال من الدنيا، نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد، سود الوجوه، معهم المسوح – من النار – فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة: اخرجي إلى سخط من الله وغضب.

فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود – الكثير الشعب – من الصوف المبلول – فتقطع معها العروق والعصب).

وفي سنن ابن ماجه عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: (الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحًا قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري برَوح وريحان، ورب غير غضبان!

فلا يزال يقال لها حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة،كانت في الجسد الطيّب: ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل.

وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج!

فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فلا يفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء فيرسل بها من السماء، ثم تصير إلى القبر)!

يروون أن يزيد الرقاشي عليه رحمة الله حضر عابدًا قد حضرته الوفاة، وحوله أهله يبكون، فقال لوالده: أيها الشيخ ما الذي يبكيك؟ قال: أبكي فقدك، وما أرى من جهدك.

فبكت أمه، قال: أيتها الوالدة الشفيقة الرفيقة ما الذي يبكيكِ؟

قالت: أبكي فراقك، وما أتعجل من الوحشة بعدك.

فبكى صبيانه وأهله وزوجه، قال: يا معشر اليتامى! ما الذي يبكيكم؟

قالوا: نبكي ما نتعجله من اليتم بعدك. فصرخ، وقال: كلكم يبكي لدنياي، أما فيكم من يبكي لآخرتي؟ أما فيكم من يبكي لملاقاة التراب وجهى؟ أما فيكم من يبكي لسؤال منكر ونكير إياي؟ أما فيكم من يبكي لوقوفي بين يدي الله ربي؟

ثم صرخ صرخة عظيمة، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، ومات! (وجدته في صفة الصفوة).

إظهار الحسرة مع يقين العجز عن العودة للدنيا:

ويتجلى التعبير عن الحسرة عندئذٍ بتوسل العبد المفرط لربه تبارك وتعالى أن يمهله، أو يعيده للدنيا ليستأنف عملًا صالحًا، يؤمن فيه بربه، ويصدق فيه نبيه، ويعمل فيه بشرعه، فلا يجد إلا الإخساء والزجر والتحقير.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى: (حتى إذا جاء أحدهم الموت، قال: رب ارجعون* لعلي أعمل صالحًا فيما تركت؛ كلا، إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) المؤمنون:99–100:

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: (رب ارجعون* لعلي أعمل صالحًا فيما تركت؛ كلا) كما قال تعالى: (وأنفقوا مما رزقناكم؛ من قبل أن يأتي أحدكم الموت، فيقول: رب لولا أخرتني إلى أجل قريب، فأصدق، وأكن من الصالحين* ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها، والله خبير بما تعملون) المنافقون: 10–11!

وقال تعالى: (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب، فيقول الذين ظلموا: ربنا أخرنا إلى أجل قريب؛ نجب دعوتك، ونتبع الرسل! أولم تكونوا أقسمتم من قبل: ما لكم من زوال)؟ إبراهيم: 44.

وقال تعالى: (يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق؛ فهل لنا من شفعاء، فيشفعوا لنا، أو نرد؛ فنعمل غير الذي كنا نعمل)!؟ الأعراف: 53,,

وقال تعالى: (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم: ربنا أبصرنا، وسمعنا، فارجعنا نعمل صالحًا؛ إنا موقنون) السجدة: 12..

وقال تعالى: (ولو ترى إذ وقفوا على النار، فقالوا: يا ليتنا نرد، ولا نكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين* بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون) الأنعام: 27–28..

وقال تعالى: (وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون: هل إلى مرد من سبيل)؟ الشورى: 44.

وقال تعالى: (قالوا: ربنا أمتنا اثنتين، وأحييتنا اثنتين؛ فاعترفنا بذنوبنا، فهل إلى خروج من سبيل؟* ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم، وإن يشرك به تؤمنوا؛ فالحكم لله العلي الكبير) غافر: 11–12..

وقال تعالى: (وهم يصطرخون فيها: ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل؛ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير!؟ فذوقوا؛ فما للظالمين من نصير) فاطر: 37!

فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور، ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم! نعوذ بالله من الخذلان!

الحسرة عند حمل الجنازة إلى القبر:

وهذا أيضًا من مواقف الحسرة في الآخرة، والعياذ بالله رب العالمين، وهو مرحلة ثانية ينظر المرء فيها بعض عقبى ما قدمت يداه.

ففي البخاري وغيره عن سعيد عن أبيه أنه سمع أبا سعيد الخدري رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا وضعت الجنازة، فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني!

وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها أين يذهبون بها؛ يسمع صوتها كل شيء؛ إلا الإنسان، ولو سمع الإنسان لصعق!

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه رياض الصالحين:

في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن الرجل إذا مات، وحملت جنازته، فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، تقول ذلك بصوت مسموع، يسمعه كل شيء إلا الإنسان، لا يسمعه نعمة من الله عز وجل، لأننا لو سمعنا ما يقوله الأموات على نعوشهم لانزعجنا، لكن الله تعال أخفاه عنا، لكن تسمعه الدواب، يسمعه كل شيء، تقول: قدموني، قدموني، لما أعده الله لها من النعيم الذي بشرت به عند الاحتضار!

وإن لم تكن صالحة قالت: يا ويلها، أين تذهبون بها؟ نعوذ بالله، تدعو بالويل؛ لأنها ستقدم – نسأل الله العافية – إلى عذاب في القبر، يضيق عليها القبر؛ حتى تختلف الأضلاع، ويفتح لها باب إلى النار – نسأل الله العافية – ولا أحد من الأحياء البشر يعلم ويشعر بذلك!

ومن نعمة الله سبحانه وتعالى أن أخفاه علينا، ولو علمنا بذلك ما تدافنا أبدًا، لكن الله يخفيه!

وهذا يدل على أن من حق الميت علينا أن نبادر به، ولذلك قال أهل العلم يسن الإسراع في تجهيز الميت؛ إلا إذا مات بغتة، فإنه ينتظر حتى يتيقن أنه مات؛ لأنه يحتمل أن يكون غشية، وأنه حي، فينتظر حتى يتيقن أنه مات، ثم نبادر به، والله الموفق!

الحسرة في القبر:

ومن مواقف الحسرة في الآخرة والعياذ بالله رب العالمين، الحسرة المتكررة يوميًّا في القبر، عند رؤية المقعد في الجنة، قد أبدله الله به مقعدًا في النار: ففي التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، رضي الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة)!

وفي مسند أحمد وغيره عن أبي الزبير، أنه سأل جابرًا رضي الله عنهما عن فتان القبر، فقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا دخل المؤمن، قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهار، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟

فيقول المؤمن: أقول إنه رسول الله وعبده، فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك من النار قد أنجاك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراهما كلاهما!

فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي، فيقال: لا؛ اسكن!

وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري أقول ما يقول الناس!

فيقال له: لا دريت، هذا مقعدك الذي كان لك من الجنة، قد أبدلك الله مكانه مقعدك من النار!

قال جابر فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: (يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه)!

ومثله حديث سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا – في صحيح الترغيب بسند حسن–: (إنَّ المَيِّتَ إذا وُضِعَ في قبرِه؛ إنَّه يسمعُ خفقَ نِعالِهم حين يُولونَ مُدبرينَ، فإنْ كان مؤمنًا كانتِ الصَّلاةُ عند رأسِهِ، وكان الصِّيامُ عن يمينِهِ، وكانتِ الزَّكاةُ عن شمالِهِ، وكان فعلُ الخَيراتِ – مِن الصَّدقةِ والصَّلاةِ والمَعروفِ والإحسانِ إلى النَّاسِ عندَ رجلَيْهِ!

فيُؤتَى مِن قِبَلِ رأسِهِ، فتقولُ الصَّلاةُ: ما قِبَلي مَدخلٌ، ثمَّ يُؤتَى عن يمينِهِ فيقولُ الصِّيامُ: ما قِبَلي مَدخلٌ، ثمَّ يُؤتَى عن يسارِهِ فتقولُ الزَّكاةُ: ما قِبَلي مَدخلٌ، ثمَّ يُؤتَى من قِبَلِ رجلَيْهِ فيقولُ فِعلُ الخَيراتِ – من الصَّدقةِ والصَّلاةِ والمعروفِ والإحسانِ إلى النَّاسِ–: ما قِبَلي مَدخلٌ!

فيُقالُ له: اجلسْ، فيجلسُ قد مُثِلَتْ لهُ الشَّمسُ، وقد أذِنَتْ للغروبِ، فيُقالُ لهُ: أرأيتُكَ هذا الَّذي كان قبلَكُم، ما تقولُ فيهِ، وماذا تشهدُ عليهِ؟

فيقولُ: دعوني حتَّى أُصلِّيَ، فيقولونَ: إنَّكَ ستفعلُ، أخبِرْنا عمَّا نسألُكَ عنهُ، أرأيتُكَ هذا الرَّجلُ الَّذي كان قبلَكُم، ماذا تقولُ فيهِ وماذا تشهدُ عليهِ؟ قال: فيقولُ:

محمَّدٌ، أشهدُ أنَّهُ رسولُ اللهِ، وأنَّهُ جاء بالحقِّ مِن عندِ اللهِ..

فيُقالُ لهُ: على ذلكَ حَييتَ، وعلى ذلكَ متَّ، وعلى ذلكَ تُبعَثُ إن شاءَ اللهُ، ثمَّ يُفتَحُ لهُ بابٌ مِن أبوابِ الجنَّةِ، فيُقالُ لهُ: هذا مقعدُكَ منها، وما أعدَّ اللهُ لكَ فيها، فيزدادُ غِبطةً وسرورًا!

ثمَّ يُفتَحُ لهُ بابٌ مِن أبوابِ النَّارِ، فيُقالُ لهُ: هذا مقعدُكَ وما أعدَّ اللهُ لكَ فيها لَو عصَيتَه؛ فيزدادُ غبطةً وسرورًا! ثمَّ يُفسَحُ لهُ في قبرِهِ سبعونَ ذراعًا، ويُنَوَّرُ لهُ فيهِ، ويُعادُ الجسدُ لِما بُدِئَ منهُ، فتُجعَلُ نسَمتُهُ في النَّسَمِ الطَّيِّبِ، وهيَ طيرٌ تُعلَقُ من شجرِ الجنَّةِ؛ فذلكَ قَولُه: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ)!

وإنَّ الكافرَ إذا أُتيَ من قِبَلِ رأسِه لَم يُوجَدْ شيءٌ، ثمَّ أُتيَ عن يمينِهِ فلا يُوجَدُ شيءٌ، ثمَّ أُتيَ عن شمالِهِ فلا يُوجَدُ شيءٌ، ثمَّ أُتيَ من قِبَلِ رجلَيْهِ فلا يُوجَدُ شيءٌ!

فيُقالُ لهُ: اجلسْ، فيجلسُ مَرعوبًا خائفًا، فيُقالُ أرأيتُكَ هذا الرَّجلَ الَّذي كان فيكُم: ماذا تقولُ فيهِ، وماذا تشهدُ عليهِ؟ فيقولُ: أيُّ رجلٍ؟ ولا يهتَدي لاسمِهِ، فيُقالُ لهُ: محمَّدٌ، فيقولُ: لا أدري، سمِعتُ النَّاسَ قالوا قَولًا، فقلتُ كما قال النَّاسُ!

فيُقالُ لهُ: على ذلِكَ حَييتَ، وعليهِ متَّ، وعليهِ تُبعَثُ إن شاءَ اللهُ، ثمَّ يُفتَحُ لهُ بابٌ من أبوابِ النَّارِ، فيُقالُ لهُ: هذا مقعدُكَ من النَّارِ، وما أعدَ اللهُ لكَ فيها، فيزدادُ حسرةً وثُبورًا!

ثمَّ يُفتَحُ لهُ بابٌ من أبوابِ الجنَّةِ، فيُقالُ لهُ: هذا مقعدُكَ منها، وما أعدَّ اللهُ لكَ فيها لَو أطعتَهُ، فيزدادُ حسرةً وثُبورًا!

ثمَّ يُضيَّقُ عليهِ قبرُهُ حتَّى تختلفَ فيهِ أضلاعُهُ، فتلكَ المَعيشةُ الضَنكةُ الَّتى قال اللهُ تعالى: (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)!

الحسرة على العمر الضائع:

ومن وقفات الحسرات في القيامة: الحسرة على العمر الضائع، وتمني لو كان بالإمكان العود، لاستئناف عمل صالح: (يومئذٍ يتذكر الإنسان، وأنى له الذكرى، يقول: يا ليتني قدمت لحياتي) الفجر:23-24.

قال في التحرير والتنوير: وجملة (يقول: يا ليتني) إلخ، يجوز أن يكون قولًا باللسان تحسرًا وتندمًا، فتكون الجملة حالًا من (الإنسان) أو بدل اشتمال من جملة (يتذكر) فإن تذكره مشتمل على تحسر وندامة.

ويجوز أن يكون قوله في نفسه، فتكون الجملة بيانًا لجملة (يتذكر) ومفعول (قدمت) محذوف للإيجاز. واللام في قوله: (لحياتي) تحتمل معنى التوقيت، أي: قدمت عند أزمان حياتي، فيكون المراد الحياة الأولى التي قبل الموت..

وتحتمل أن يكون اللام للعلة، أي: قدمت الأعمال الصالحة لأجل أن أحيا في هذه الدار، والمراد: الحياة الكاملة السالمة من العذاب؛ لأن حياتهم في العذاب حياة غشاوة وغياب، قال تعالى: (ثم لا يموت فيها ولا يحيا).

وحرف النداء في قوله: (يا ليتني) للتنبيه اهتمامًا بهذا التمني في يوم وقوعه.

وقال صاحب الظلال رحمه الله تعالى:

(يومئذٍ يتذكر الإنسان): الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء؛ والذي أكل التراث أكلًا لمًّا، وأحب المال حبًّا جمًّا، والذي لم يكرم اليتيم، ولم يحض على طعام المسكين، والذي طغى وأفسد وتولى (يومئذٍ يتذكر) يتذكر الحق، ويتعظ بما يرى، ولكن لقد فات الأوان (وأنَّى له الذكرى)!

ولقد مضى عهد الذكرى، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحدًا! وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا!

وحين تتجلى له هذه الحقيقة (يقول: يا ليتني قدمت لحياتي) يا ليتني قدمت شيئًا لحياتي هنا؛ فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة، وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها. (يا ليتني): أمنية فيها الحسرة الظاهرة، وهي أقصى ما يملكه الإنسان في الآخرة!

الحسرة عند البعث من القبر:

يحكي الله تعالى في سورة يا سين:52 عن منكري البعث والنشور، حين يبعثهم سبحانه، فيفاجؤون بصحة ما أنكروه، ووقوعهم في شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم: فيصيحون في تحسر وانقطاه: (يا ويلنا! من بعثنا من مرقدنا؟ هذا ما وعد الرحمن، وصدق المرسلون)!

قال في التحرير والتنوير (بتصرف): و(يا ويلنا) كلمة يقولها الواقع في مصيبة، أو المتحسر.

والويل: سوء الحال؛ وإنما قالوا ذلك لأنهم رأوا ما أعد لهم من العذاب عندما بعثوا. وحكي قولهم بصيغة الماضي؛ اتباعًا لحكاية ما قبله بصيغة المضي، لتحقيق الوقوع!

وحرف النداء الداخل على (يا ويلنا) للتنبيه، وتنزيل الويل منزلة من يسمع فينادى ليحضر، و(من) استفهام عن فاعل البعث، مستعمل في التعجب والتحسر من حصول البعث!

ولما كان البعث عندهم محالًا كنوا عن التعجب من حصوله بالتعجب من فاعله؛ لأن الأفعال الغريبة تتوجه العقول إلى معرفة فاعلها، لأنهم لما بعثوا، وأزجي بهم إلى العذاب، علموا أنه بعث فعله من أراد تعذيبهم!

والمرقد: مكان الرقاد. وحقيقة الرقاد: النوم. وأطلقوا الرقاد على الموت، والاضطجاع في القبور؛ تشبيهًا بحالة الراقد!

ثم لم يلبثوا أن استحضرت نفوسهم ما كانوا ينذرون به في الدنيا، فاستأنفوا عن تعجبهم قولهم: (هذا ما وعد الرحمن، وصدق المرسلون) وهذا الكلام خبر مستعمل في لازم الفائدة، وهو أنهم علموا سبب ما تعجبوا منه، فبطل العجب، فيجوز أن يكونوا يقولون ذلك كما يتكلم المتحسر بينه وبين نفسه، وأن يقوله بعضهم لبعض، كل يظن أن صاحبه لم يتفطن للسبب، فيريد أن يعلمه به!

وأتوا – في التعبير عن اسم الجلالة – بصفة الرحمن إكمالًا للتحسر على تكذيبهم بالبعث؛ بذكر ما كان مقارنًا للبعث في تكذيبهم، وهو إنكار هذا الاسم، كما قال تعالى: (وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن)؟

والإشارة بقوله (هذا) إشارة إلى الحالة المرئية لجميعهم، وهي حالة خروجهم من الأرض!

وجملة (وصدق المرسلون) عطف على جملة هذا ما وعد الرحمن، وهو مستعمل في التحسر على أن كذبوا الرسل!

ومن المفسرين من جعل قوله تعالى: (هذا ما وعد الرحمن، وصدق المرسلون) من كلام الملائكة، يجيبون به قول الكفار: (من بعثنا من مرقدنا) فهذا جواب يتضمن بيان من بعثهم، مع تنديمهم على تكذيبهم به في الحياة الدنيا، حين أبلغهم الرسل ذلك عن الله تعالى!

واسم الرحمن حينئذ من كلام الملائكة؛ لزيادة توبيخ الكفار، على تجاهلهم به في الدنيا!

وهنا إشكال أحببت أن أنبه إليه؛ إذ إن هناك لبسًا هنا وهو: كيف يقول أهل القبور عند بعثهم إنهم كانوا راقدين في مراقدهم، وكأنهم كانوا مستريحين غافين، لا يكرثهم شيء! ألا يعذب كثير من أنواع الناس في قبورهم بذنوبهم كما صحت بذلك أحاديث كثيرة (انظر مثلًا الفتوى 110958 في إسلام ويب). وقد وجدت لذلك إجابات منها: إجابة العلامة ابن عثيمين في أحد مجالسه، حين سئل عن ذلك فقال: لا شك أن القبر إما روضةٌ من رياض الجنة، وإما حفرةٌ من حفر النار، وقد ورد أنه يوسع للمؤمن مد البصر، ويضيق على الكافر حتى

تختلف أضلاعه – والعياذ بالله – وأما قولهم: (من بعثنا من مرقدنا) فمرقد الإنسان محل رقاده، ولا يلزم من ذلك أن ينام، كما تقول مثلًا: هذا مرقدي، وتضطجع فيه ولا تنام. ومن العلماء من يقول: إنه يرفع عنهم العذاب فيما بين النفختين فيظنون أن العذاب انقطع وانتهى، ثم يبعثون – والعياذ بالله – من قبورهم، ويشاهدون من العذاب أكثر من عذاب القبر، ولهذا يقولون: (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا).

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى في الأضواء:

والآية تدل دلالة لا لبس فيها، على أنهم ينامون نومة قبل البعث، كما قاله غير واحد، وعند بعثهم أحياء من تلك النومة – التي هي نومة موت – يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان: (هذا ما وعد الرحمن، وصدق المرسلون)، أي: هذا البعث بعد الموت، الذي وعدكم الرحمن على ألسنة رسله، وصدق المرسلون في ذلك، كما شاهدتموه عيانًا، فقوله في (يس): (هذا ما وعد الرحمن)، قول الذين أوتوا العلم والإيمان، على التحقيق، وقد اختاره ابن جرير، وهو مطابق لمعنى قوله تعالى: (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) الآية.

وقال الإمام البغوي في تخريج ذلك، وهو موجود في تفاسير القرطبي وابن كثير والطبري والسعدي والتحرير والتنوير وغيرها!

قال أبي بن كعب، وابن عباس، وقتادة إنما يقولون هذا؛ لأن الله – تعالى – يرفع عنهم العذاب بين النفختين، فيرقدون، فإذا بعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل.

وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها صار عذاب القبر في جنبها كالنوم، فقالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ ثم قالوا: (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) أقروا حين لم ينفعهم الإقرار. وقال أثير الدين الأندلسي في تفسيره الكبير (البحر المحيط):

والمرقد: استعارة عن مضجع الميت، واحتمل أن يكون مصدرًا، أي من رقادنا، وهو أجود. أو يكون مكانًا، فيكون المفرد فيه يراد به الجمع، أي من مراقدنا. وما روي عن أبي بن كعب ومجاهد، وقتادة: من أن جميع البشر ينامون نومة قبل الحشر، فقالوا: هو غير صحيح الإسناد. وقيل: قالوا من مرقدنا: لأن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم.

الحسرة عند التحقق من قيام القيامة:

ومن مواقف الحسرة الصعبة: تيقن وقوع القيامة، وتيقن وقوع تبعاتها:

يقول الله تبارك وتعالى: (ذلك اليوم الحق؛ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبًا* إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، ويقول الكافر: يا ليتني كنت ترابًا) النبأ:39–40.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: (إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا) يخاطب كفار قريش ومشركي العرب؛ لأنهم قالوا: لا نبعث. والعذاب عذاب الآخرة، وكل ما هو آتٍ فهو قريب، وقد قال تعالى: (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) . وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنها أقرب العذابين.

وقال مقاتل: هي قتل قريش ببدر. والأظهر أنه عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخزي والهوان؛ ولهذا قال تعالى: (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) بين وقت ذلك العذاب؛ أي أنذرناكم عذابًا قريبًا في ذلك اليوم، وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، أي يراه!

وقيل: ينظر إلى ما قدمت، فحذف إلى. والمرء هاهنا: المؤمن، في قول الحسن؛ أي يجد لنفسه عملًا، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملًا، فيتمنى أن يكون ترابًا؛ ولما قال: (ويقول الكافر) علم أنه أراد بـ(المرء) المؤمن. وقيل: المرء هاهنا: أبي بن خلف، وعقبة ابن أبي معيط!

ويقول الكافر أبو جهل. وقيل: هو عام في كل أحد وإنسان يرى في ذلك اليوم جزاء ما كسب.

وقال مقاتل: نزلت قوله: (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي: (ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا) في أخيه الأسود بن عبد الأسد!

وقال الثعلبي: سمعت أبا القاسم ابن حبيب يقول: الكافر: هاهنا إبليس، وذلك أنه عاب آدم بأنه خلق من تراب، وافتخر بأنه خلق من نار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة، والرحمة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنى أنه يكون بمكان آدم، فيقول: (يا ليتني كنت ترابًا)! قال: ورأيته في بعض التفاسير للقشيري أبي نصر.

وقيل: أي يقول إبليس: يا ليتني خلقت من التراب، ولم أقل: أنا خير من آدم!

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يوضع القصاص بين البهائم، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء، بنطحتها، فإذا فرغ من القصاص بينها قيل لها: كوني ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: (يا ليتني كنت ترابًا). ونحوه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم.

ذكر أبو جعفر النحاس، حدثنا..... عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، قال: إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان، ثم يقال للبهائم والطير كوني ترابًا، فعند ذلك (يقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا)!

وقال قوم: (يا ليتني كنت ترابًا) أي لم أبعث، كما قال: (يا ليتني لم أوت كتابيه).

وقال أبو الزناد: إذا قضي بين الناس، وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجن: عودوا ترابًا، فيعودون ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم: (يا ليتني كنت ترابًا)! وقال ليث ابن أبي سليم: مؤمنو الجن يعودون ترابًا.

الحسرة عند ذبح الموت على الصراط:

ومن مواقف الحسرة – نعوذ بالله من غضب الله وسخطه وعذابه – حسرة أهل النار حين يذبح الموت على الصراط، وإخبارهم أنهم في عذاب جهنم خالدون، لا يفتّر عنهم، ولا يخفف:

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى في أضواء البيان: قال البخاري رحمه الله في صحيحه: باب قوله عز وجل: (وأنذرهم يوم الحسرة): حدثنا.... عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه!

ثم ينادى: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل: تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه!

فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت! ثم قرأ: (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة) وهؤلاء في غفلة الدنيا وهم لا يؤمنون، انتهى من صحيح البخاري.

والحديث مشهور متفق عليه وقراءة النبي صلى الله عليه وسلم الآية بعد ذكره ذبح الموت تدل على أن المراد بقوله " إذ قضي الأمر " أي: ذبح الموت، وفي معناه أقوال أخر غير هذا تركناها لدلالة الحديث الصحيح على المعنى الذي ذكرنا.

وقال في البحر المحيط:

(وأنذرهم) خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، والضمير لجميع الناس. وقيل: يعود على الظالمين. و(يوم الحسرة) يوم ذبح الموت، وفيه حديث.

وعن ابن زيد: يوم القيامة. وقيل: حين يصدر الفريقان إلى الجنة والنار، وعن ابن مسعود: حين يرى الكفار مقاعدهم التي فاتتهم من الجنة لو كانوا مؤمنين.

وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون (يوم الحسرة) اسم جنس؛ لأن هذه حسرات كثيرة في مواطن عدة، ومنها يوم الموت، ومنها وقت أخذ الكتاب بالشمال وغير ذلك. انتهى.

و (إذ) بدل من (يوم الحسرة) قال السدي وابن جريج: (قضي الأمر) ذبح الموت.

وقال مقاتل: قضي العذاب. وقال ابن الأنباري المعنى (إذ قضي الأمر) الذي فيه هلاككم. وقال الضحاك: يكون ذلك إذا برزت جهنم ورمت بالشرر.

وعن ابن جريج أيضًا: إذا فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. وقيل: (إذا قال: اخسئوا فيها ولا تكلمون)، وقيل: إذا يقال: (امتازوا اليوم أيها المجرمون) وقيل: إذا قضي سد باب التوبة وذلك حين تطلع الشمس من مغربها.

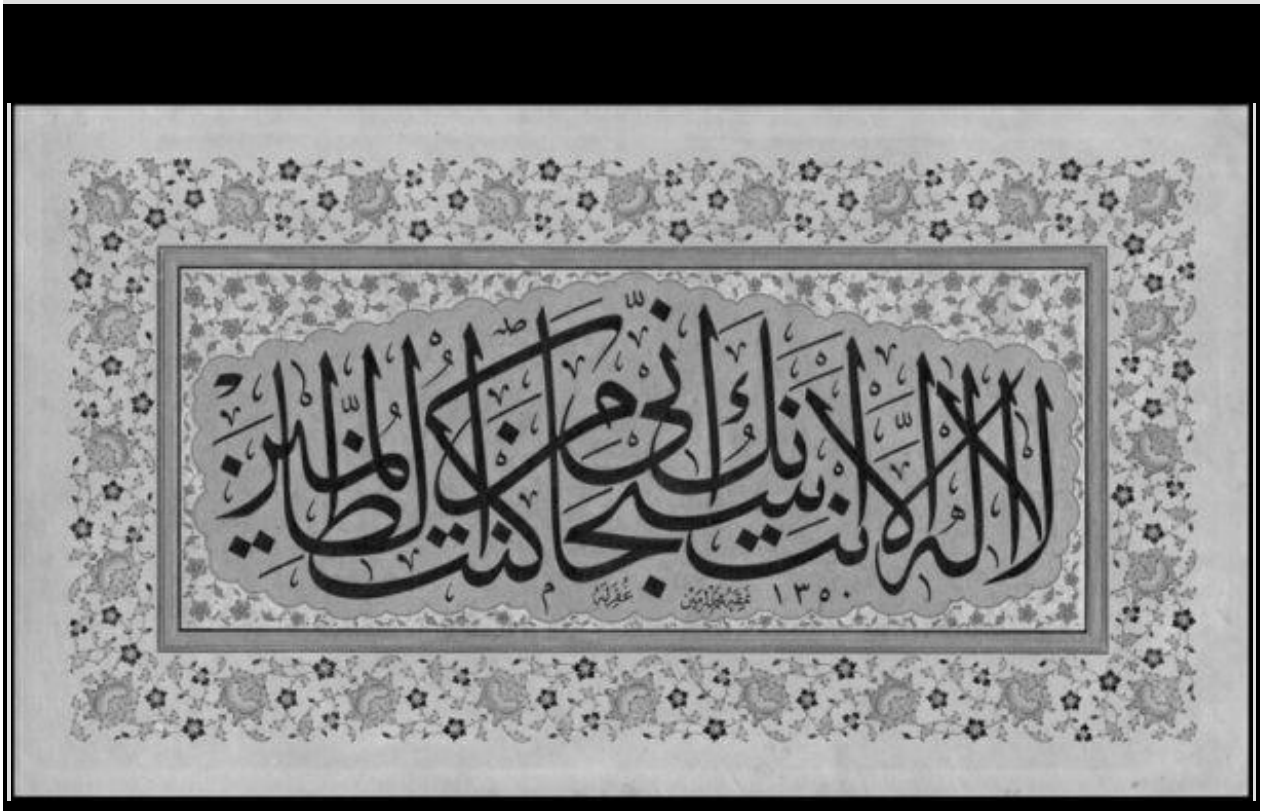

الخطاط العثماني محمد أمين رحمه الله قبل 86 سنة

الحسرة عند رؤية جهنم والعياذ بالله رب العالمين:

ومن أعظم مواقف الحسرة ما يكون عند رؤية جهنم والعياذ بالله رب العالمين، وقد ذكر الله تبارك وتعالى ذلك في سورة الفجر: (كلا إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا* وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا* وجيء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان؛ وأنى له الذكرى) الفجر:21-23.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال: (كلا) أي: حقًّا (إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا) أي: وطِّئت، ومهدت، وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم..

(وجاء ربك) يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق، محمد صلى الله عليه وسلم، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل، واحدًا بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النوبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول: (أنا لها، أنا لها)! فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفِّعه الله في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود، فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا!

وقوله: (وجيء يومئذ بجهنم) قال الإمام مسلم: عن سيدي ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، يجرونها).

وقوله: (يومئذ يتذكر الإنسان) أي: عمله، وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه!

(وأنى له الذكرى) أي: وكيف تنفعه الذكرى؟

وفي التحرير والتنوير قال:

وجملة (يقول يا ليتني) إلخ، يجوز أن يكون قولاً باللسان؛ تحسرًا وتندمًا، فتكون الجملة حالًا من (الإنسان) أو بدل اشتمال من جملة (يتذكر) فإن تذكره مشتمل على تحسر وندامة. ويجوز أن يكون قوله في نفسه فتكون الجملة بيانا لجملة (يتذكر)! ومفعول (قدمت) محذوف للإيجاز. واللام في قوله: (لحياتي) تحتمل معنى التوقيت، أي: قدمت عند أزمان حياتي، فيكون المراد الحياة الأولى التي قبل الموت، وتحتمل أن يكون اللام للعلة، أي: قدمت الأعمال الصالحة لأجل أن أحيا في هذه الدار والمراد: الحياة الكاملة السالمة من العذاب؛ لأن حياتهم في العذاب حياة غشاوة وغياب، قال تعالى: (ثم لا يموت فيها ولا يحيا).

الحسرة عند يقين مفارقة الدنيا وانقطاع الأمل:

ومن مواقف الحسرة ما يفوه به الإنسان المفرط الناسي، حين يجيء الرب تبارك وتعالى، في ظلل من الغمام، والملائكة يأتون صفًّا صفًّا، ويرى جهنم أمامه بارزة متغيظة تزفر، يجرها سبعون ألف ملك: (يقول يا ليتني قدمت لحياتي) الفجر:24، من الأعمال، والطاعات، والالتزام بشرع الله ما ينجيني مما أرى، ويعض على يديه أن لم يتخذ مع الرسول صلى الله عليه وسلم سبيلًا: (فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد* ولا يوثق وثاقه أحد) الفجر:25-26. وحتى المؤمن سيتحسر أن لم يزدد من العمل؛ قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:

يعني: يندم على ما كان سلف منه من المعاصي – إن كان عاصيًا – ويود لو كان ازداد من الطاعات – إن كان طائعًا – كما قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا علي بن إسحق..... عن محمد بن أبي عميرة – وكان من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: لو أن عبدًا خر على وجهه، من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا، في طاعة الله، لحقره يوم القيامة، ولود أنه يرد إلى الدنيا؛ كيما يزداد من الأجر والثواب!

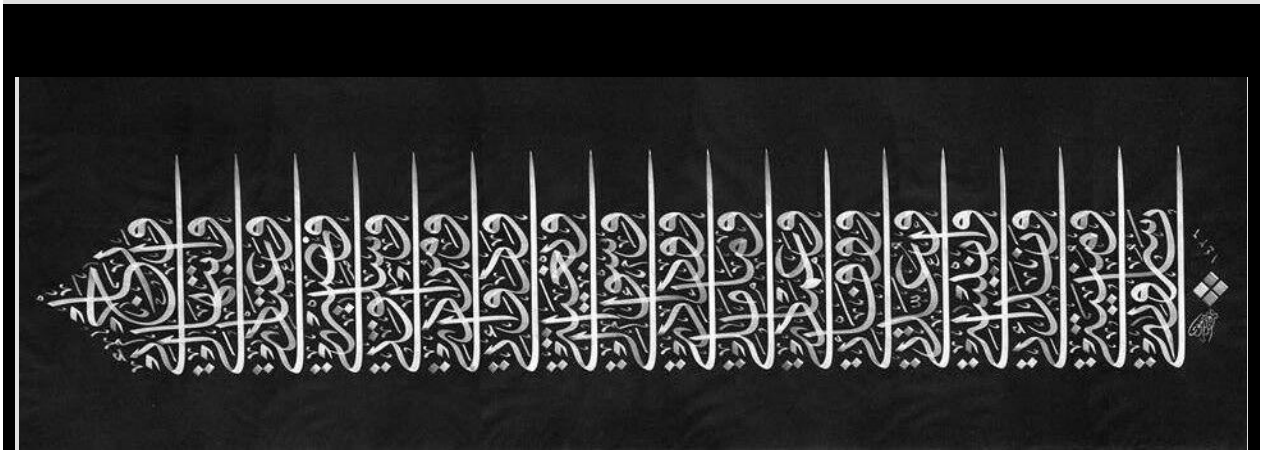

الحسرة عند رؤية ملائكة العذاب والعياذ بالله رب العالمين:

ومن مواقف الحسرة الفاطرة للقلوب، ما ينتاب أهل الشقوة عند رؤية ملائكة العذاب، من الرعب، وما يفوهون به من دعوى الثبور، والرغبة في الهلاك من هول ما يرون: (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين، ويقولون: حِجرًا محجورًا) الفرقان:22. وقرأ الحسن وأبو رجاء: حُجرًا بضم الحاء، والناس على كسرها. وقيل: إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم!

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى (بتصرف): يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت: فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد، حتى تخرج أنفسهم.

(ويقولون حجرًا محجورًا) تقول الملائكة: حرامًا محرمًا أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله، وأقام شرائعها؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وروي عن الحسن رضي الله عنه أنه قال: و(يقولون حجرًا) وقف؛ من قول المجرمين: فقال الله عز وجل: (محجورًا) عليهم أن يعاذوا أو يجاروا؛ فحجر الله ذلك عليهم يوم القيامة.

وقيل: هو قول الكفار للملائكة، وهي كلمة استعاذة، وكانت معروفة في الجاهلية؛ فكان إذا لقي الرجل من يخافه قال: حجرًا محجورًا، أي حرامًا عليك التعرض لي. وانتصابه على معنى: حجرت عليك، أو حجر الله عليك، كما تقول: سقيًا ورعيًا. أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم في النار قالوا: نعوذ بالله منكم.

قلت: ويؤكد هذا المعنى ما ورد في سورة الأنعام–93 عن حال الملائكة مع أولئكم، وكيف يروعونهم، في قوله تعالى: (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت، والملائكة باسطوا أيديهم: أخرجوا أنفسكم؛ اليوم تجزون عذاب الهون؛ بما كنتم تقولون على الله غير الحق، وكنتم عن آياته تستكبرون)! وقوله تعالى: (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ، يضربون وجوههم وأدبارهم،

وذوقوا عذاب الحريق)! الأنفال:50. ومثلها في سورة محمد صلى الله عليه وسلم:27 (فكيف إذا توفتهم الملائكة، يضربون وجوههم وأدبارهم)!.

وأزعم – وأستغفر الله تعالى – أن الهول الأكبر هنا عندما يرون ملائكة العذاب، من خزنة جهنم، وهي متأهبة لإلقائهم في سواء الجحيم – والعياذ بالله تعالى – والتنكيل بهم، كما قال تعالى (يأيها الذين آمنوا: قوا أنفسكم وأهليكم نارًا، وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ، شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون) التحريم:6.

الحسرة عند تلقي كتاب الأعمال:

ومن مواقف الحسرة هتاف الندامة والثبور من ابن آدم عندما يتلقى بشماله كتاب أعماله، الذي يحصى الدقيقة والجليلة، نعوذ بالله من الخذلان: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ، فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ: يَا وَيْلَتَنَا؛ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) الكهف:49/ (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول: يا ليتني لم أوت كتابيه) الحاقة:2 5.

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره:

يقول عز ذكره: ووضع الله يومئذ كتاب أعمال عباده في أيديهم، فأخذ واحد بيمينه، وأخذ واحد بشماله (فترى المجرمين مشفقين مما فيه) يقول عز ذكره: فترى المجرمين المشركين بالله مشفقين خائفين وجلين مما فيه مكتوب من أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا؛ أن يؤاخذوا بها (ويقولون: يا ويلتنا؛ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) يعني أنهم يقولون

إذا قرؤوا كتابهم، ورأوا ما قد كتب عليهم فيه من صغائر ذنوبهم وكبائرها، نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله، وضجوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها!

كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلمًا، فإياكم والمحقرات من الذنوب؛ فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه، ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يضرب لها مثلًا يقول كمثل قوم انطلقوا يسيرون، حتى نزلوا بفلاة من الأرض، وحضر صنيع القوم، فانطلق كل رجل يحتطب، فجعل الرجل يجيء بالعود، ويجيء الآخر بالعود، حتى جمعوا سوادًا كثيرًا، وأججوا نارًا، فإن الذنب الصغير، يجتمع على صاحبه حتى يهلكه!

ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى:

(ويوم نسير الجبال، وترى الأرض بارزة، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا* وعرضوا على ربك صفًّا؛ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدًا* ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه؛ ويقولون: يا ويلتنا! مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟ ووجدوا ما عملوا حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا)!

إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة، ويرتسم الهول فيه على صفحاتها، وعلى صفحات القلوب.

مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير، فكيف بالقلوب، وتتبدى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة، لا نجاد فيها ولا وهاد، ولا جبال فيها ولا وديان.

وكذلك تتكشف خبايا القلوب، فلا تخفى منها خافية. ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التي لا تخبئ شيئًا، ولا تخفي أحدًا: (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا)!

ومن الحشر الجامع الذي لا يخلف أحدًا إلى العرض الشامل: (وعرضوا على ربك صفًا) هذه الخلائق التي لا يحصى لها عدد، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة، هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة، لم يتخلف منها أحد، فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفي أحدًا.

وهنا يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب؛ فكأنما المشهد حاضر اللحظة، شاخص نراه ونسمع ما يدور فيه. ونرى الخزي على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه: (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة. بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدًا)!

هذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يحيي المشهد ويجسمه؛ كأنما هو حاضر اللحظة، لا مستقبل في ضمير الغيب في يوم الحساب.

وإننا لنكاد نلمح الخزي على الوجوه، والذل في الملامح، وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب: (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) وكنتم تزعمون أن ذلك لن يكون: (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدًا)!

وبعد إحياء المشهد واستحضاره بهذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يعود إلى وصف ما هناك: (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم، وهم يتملونه ويراجعونه، فإذا هو شامل دقيق. وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة: (يقولون: يا ويلتنا؛ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلا أحصاها)؟ وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب، وقد ضبط مكشوفًا لا يملك تفلتا ولا هربًا، ولا مغالطة ولا مداورة: (ووجدوا ما عملوا حاضرًا) ولاقوا جزاء عادلًا: (ولا يظلم ربك أحدًا)!

هؤلاء المجرمون الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أن الشيطان عدو لهم، ولكنهم تولوه فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب؛ فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته، وهم لهم عدو؛ منذ ما كان بين آدم عليه السلام، وإبليس عليه لعائن الله تعالى.

بخط أ. عثمان طه

الحسرة عند الافتضاح وانكشاف المخبوء:

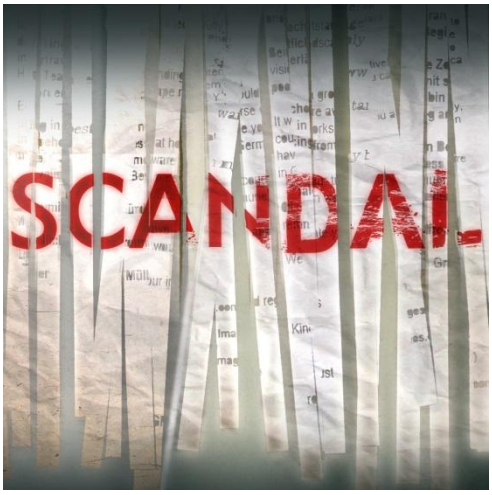

ومن مواقف الحسرة – نعوذ بالله من غضب الله – الحسرة على انكشاف الأوراق، وظهور ما كان منسيًّا، وافتضاح ما كان مستورًا – اللهم استرنا، وأسبغ علينا سترك وعافيتك، ولا تخزنا بين خلقك ولا بين يديك – كما قال تبارك وتعالى: ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعًا، ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون* وبدا لهم سيئات ما كسبوا، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ الزمر:47–48 إنه الهول الملفوف في ثنايا التعبير الرهيب – كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى – فلو أن لهؤلاء الظالمين بشركهم – وهو الظلم العظيم – لو أن لهؤلاء ﴿ما في الأرض جميعًا﴾ مما يحرصون عليه، وينأون عن الإسلام اعتزازًا به ﴿ومثله معه﴾ لقدموه؛ فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة!

وهول آخر يتضمنه التعبير الملفوف: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ ولا يفصح عما بدا لهم من الله، ولم يكونوا يتوقعونه. لا يفصح عنه، ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف؛ فهو الله، الله الذي يبدو منه لهؤلاء الضعاف ما لا يتوقعون! هكذا بلا تعريف ولا تحديد ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ وهذه كذلك تزيد الموقف سوءًا؛ حين يتكشف لهم قبح ما فعلوا، وحين يحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير، وهم في ذلك الموقف الأليم الرعيب!

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في فتح القدير:

لما حكى عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر الله تعالى، والاستبشار عند ذكر الأصنام! ذكر سبحانه ما يدل على شدة عذابهم، وعظيم عقوبتهم؛ فقال عز وجل: (ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعًا) أي: جميع ما في الدنيا، من الأموال والذخائر (ومثله معه) أي: منضمًّا إليه (لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) أي: من سوء عذاب ذلك اليوم!

(وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أي: ظهر لهم من عقوبات الله، وسخطه، وشدة عذابه ما لم يكن في حسابهم، وفي هذا وعيد عظيم وتهديد بالغ. وقال مجاهد: عملوا أعمالًا توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات، وكذا قال السدي!

وقال سفيان الثوري: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء؛ هذه آيتهم وقصتهم.

وقال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعًا شديدًا، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب!

(وبدا لهم سيئات ما كسبوا) أي: مساوئ أعمالهم؛ من الشرك، وظلم أولياء الله، و(ما) يحتمل أن تكون مصدرية أي: سيئات كسبهم، وأن تكون موصولة أي: سيئات الذي كسبوه!

(وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أي: أحاط بهم، ونزل بهم ما كانوا يستهزئون به؛ من الإنذار الذي كان ينذرهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!

وهذه جملة من الأعمال التي نعملها أنا وأنت؛ نرجو ثوابها وخيرها، وربما تكون ذات آفة تفسدها، أو تقلبها سيئات – والعياذ بالله من شرور أنفسنا – وبها يبدو لنا من الله ما لم نكن نحتسب، جمعها الشيخ محمد علي صالح الغامدي في خطبة له، أسوقها اختصارًا، منها:

1 - فعل من زين له سوء عمله فرآه حسنًا؛ وهى من شر الأعمال كفعل القبوريين للتقرب عندهم لله عز وجل، قال تعالى:(أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا! فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فاطر:8.

2 - السيئات الماحية: وقد يعمل الإنسان أعمالًا صالحة كثيرة ومع هذا الصلاح يفعل محرمًا، غير مبال بنظر الله إليه؛ فيمحو ذلك حسناته، ولا يبدو له ذلك إلا يوم القيامة! قال صلى الله عليه وسلم: (لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلها الله عز وجل هباء منثورًا... أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها) رواه ابن ماجه! نعوذ بالله من الخذلان!

3 - الاستهانة بالذنب: ربما يحتقر الإنسان ذنبًا ويستهين به، فيكون هو سبب هلاكه؛ كما قال تعالى: (وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله – لا يلقي لها بالًا – يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم) البخاري ومسلم، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: إنكم تعملون أعمالا هي في أعينكم أدق من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات. البخاري

4 - مظالم العباد: فمن الناس من يعمل أعمالًا صالحة كثيرة، ولكنه لا يتجنب ظلم العباد، فيقتص منه، فتذهب المظالم بجميع حسناته، بل ويطرح عليه من سيئات القوم؛ كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع! فقال صلى الله عليه وسلم: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي، وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار!

5 - المراءاة بالعمل: قال سفيان: ويل لأهل الرياء من هذه الآية (وبدا لهم من الله لم يكونوا يحتسبون) فيا خسارة من عمل طاعات شريفة جليلة ولم يخلص فيها لله عز وجل.....

ورد أن شُفَيًّا الأصبحي حدث: أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما خلا قلت له أنشدك بحق وبحق.. لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته فقال أبو هريرة:..... أفعل؛ لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته.. حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى – إذا كان يوم القيامة – ينزل إلى العباد ليقضي بينهم – وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به: رجل جمع القرآن، ورجل يقتتل في سبيل الله، ورجل كثير المال!

فيقول الله تعالى للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب!

قال تبارك وتعالى: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله العليم الحكيم له: كذبت، وتقول له الملائكة كذبت، ويقول الله عز من قائل: بل أردت أن يقال إن فلانًا قارئ، فقد قيل ذاك!

ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله تبارك وتعالى له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال العليم الحكيم: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له العلي العظيم: كذبت، وتقول له الملائكة كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان جواد؛ فقد قيل ذاك!

ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله سبحانه له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت، حتى قتلت! فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة:كذبت، ويقول الله المحيط العليم: بل أردت أن يقال فلان جريء؛ فقد قيل ذاك!

ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال: يا أبا هريرة: أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة!

وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم: من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه".رواه البخاري

6 - المطالبة بشكر النعم: مما يدخل في ذلك أيضًا ولا يحتسب الإنسان له: أن يناقش الحساب، فيطلب منه شكر النعم، فتقوم بعض النعم، فتستوعب جميع أعماله، فيطلب بشكرها فيعذب!

فعن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من نوقش الحساب عذب). قالت: قلت أليس يقول الله تعالى: (فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا)؟ قال صلى الله عليه وسلم: (ذلك العرض) قال يحيى بن معاذ: (إذا بسط فضله لم يبق لأحد سيئة، وإذا جاء عدله لم يبق لأحد حسنة) نسأل الله الكريم من فضله العظيم.

الحسرة على انقطاع الأمل في الخروج من النار:

ومن مواقف الحسرة أيضًا، التي يتمنى فيها أصحابها الموت، وكانوا في الدنيا (لا يتمنونه أبدًا): الحسرة على انقطاع الأمل في النجاة: وهول جميعًا، وهول العذاب فيها، فينادون في لهفة: (يا مالك: ليقض علينا ربك، قال: إنكم ماكثون* لقد جئناكم بالحق؛ ولكن أكثرَكم للحق كارهون) الزخرف:77–78!

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في فتح القدير:

(ونادوا يا مالك) أي: نادى المجرمون هذا النداء، ومالك هو خازن النار. (ليقض علينا ربك) بالموت؛ توسلوا بمالك إلى الله سبحانه ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت؛ ليستريحوا من العذاب!

(قال: إنكم ماكثون) أي: مقيمون في العذاب، قيل: سكت عن إجابتهم ثمانين سنة، ثم أجابهم بهذا الجواب، وقيل: سكت عنهم ألف عام، وقيل: مائة سنة، وقيل: أربعين سنة!

(لقد جئناكم بالحق) يحتمل أن يكون هذا من كلام الله سبحانه، ويحتمل أن يكون من كلام مالك، والأول أظهر، والمعنى: إنا أرسلنا إليكم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب، فدعوكم؛ فلم تقبلوا، ولم تصدقوا، وهو معنى قوله: (ولكن أكثركم للحق كارهون) لا يقبلونه، والمراد بالحق: كل ما أمر الله به على ألسن رسله، وأنزله في كتبه. وقيل: هو خاص بالقرآن. قيل: ومعنى (أكثركم): كلكم. وقيل: أراد الرؤساء والقادة، ومن عداهم أتباع لهم.

وقال صاحب الظلال رحمه الله تعالى:

....تتناوح في الجو صيحة من بعيد؛ صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق: (ونادوا: يا مالك: ليقض علينا ربك) إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق، من هناك! من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم. إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين. إنهم لا يصيحون في طلب النجاة، ولا في طلب الغوث؛ فهم مبلسون يائسون، إنما يصيحون في طلب الهلاك، الهلاك السريع الذي يريح: وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا!

وإن هذا النداء ليلقي ظلًّا كثيفًا للكرب والضيق.

وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسًا أطار صوابها العذاب، وأجسامًا تجاوز الألم بها حد الطاقة، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة: (يا مالك: ليقض علينا ربك)!

ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل، وبلا رعاية ولا اهتمام: (قال: إنكم ماكثون)! فلا خلاص، ولا رجاء، ولا موت، ولا قضاء.. إنكم ماكثون!

وفي ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق، المعرضين عن الهدى، الصائرين إلى هذا المصير؛ ويعجب من أمرهم على رؤوس الأشهاد، في أنسب جو للتحذير والتعجيب: (لقد جئناكم بالحق، ولكن أكثركم للحق كارهون* أم أبرموا أمرًا؟ فإنا مبرمون* أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم؟ بلى؛ ورسلنا لديهم يكتبون)! الزخرف:78–80! وكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه، لا عدم إدراك أنه الحق، ولا الشك في صدق الرسول الكريم؛ فما عهدوا عليه كذبًا قط على الناس، فكيف يكذب على الله، ويدعي عليه ما يدعيه؟!

والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه الحق، ولكنهم يكرهونه، لأنه يصادم أهواءهم، ويقف في طريق شهواتهم. وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم؛ ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته! فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجتراء على الدعاة! لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت، العليم بما يسرون وما يمكرون: (أم أبرموا أمرًا؟ فإنا مبرمون* أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم؟ بلى؛ ورسلنا لديهم يكتبون)! الزخرف:79–80.

الحسرة على استحالة الخروج بعد المعاينة:

ومن مواقف انفطار القلب حسرة، وعض بنان الندم توجعًا: الحسرة على عدم القدرة على الخروج من النار بعد معاينة الأهوال: (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين* ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) المؤمنون:106–107.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:

(قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) أحسن ما قيل في معناه:

غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا؛ فسمى اللذات والأهواء شقوة، لأنهما يؤديان إليها، كما قال الله عز وجل: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا)؛ لأن ذلك يؤديهم إلى النار.

وقيل: ما سبق في علمك، وكتب علينا في أم الكتاب من الشقاوة.

وقيل: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق.

(وكنا قوما ضالين) أي كنا في فعلنا ضالين عن الهدى! وليس هذا اعتذارًا منهم؛ إنما هو إقرار، ويدل على ذلك قولهم: (ربنا أخرجنا منها، فإن عدنا فإنا ظالمون) طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت.

(فإن عدنا) إلى الكفر فإنا ظالمون لأنفسنا بالعود إليه! فيجابون بعد ألف سنة: (اخسؤوا فيها ولا تكلمون) أي ابعدوا في جهنم؛ كما يقال للكلب: اخسأ؛ أي ابعد. خسأت الكلب خسئًا طردته. وخسأ الكلب بنفسه خسوءًا، يتعدى ولا يتعدى. وانخسأ الكلب أيضًا.

وذكر ابن المبارك قال: حدثنا سعيد ابن أبي عروبة .....عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: إن أهل جهنم يدعون مالكًا فلا يجيبهم أربعين عامًا، ثم يرد عليهم: إنكم ماكثون.

قال: هانت والله دعوتهم على مالك ورب مالك. قال: ثم يدعون ربهم فيقولون: (ربنا غلبت علينا شقوتنا، وكنا قومًا ضالين* ربنا أخرجنا منها؛ فإن عدنا فإنا ظالمون) قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين. قال: ثم يرد عليهم: (اخسؤوا فيها) قال: فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة، وما هو

إلا الزفير والشهيق من نار جهنم، فشبه أصواتهم بصوت الحمير، أولها زفير، وآخرها شهيق. خرجه الترمذي مرفوعًا بمعناه من حديث أبي الدرداء .

وقال محمد بن كعب القرظي: ..... وفي آخره: ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم: (ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون)؟! قال: فلما سمعوا صوته قالوا الآن يرحمنا ربنا، فقالوا عند ذلك: (ربنا غلبت علينا شقوتنا) أي الكتاب الذي كتب علينا (وكنا قوما ضالين* ربنا أخرجنا منها؛ فإن عدنا فإنا ظالمون) فقال عند ذلك: (اخسئوا فيها ولا تكلمون) فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجوه بعض، وأطبقت عليهم.

قلت – وأستغفر الله تعالى – تحديد مدة انتظارهم بأربعين سنة، أو مائة، أو ألف، أو قدر الدنيا أو أكثر أو أقل، حتى يرد عليهم مالك خازن النار، أمور لا دليل عليها ثابتة أو قوية عليها، والدخول فيها دخول في تفاصيل لم تؤثر عن سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تأت بها آية، فلا وجه لإيرادها، والله تعالى أعلى وأعلم.

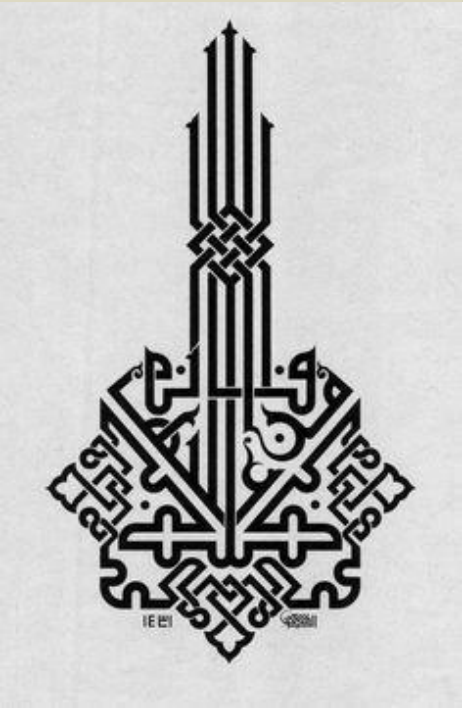

الحسرة على التفريط في زمن العمل:

ومن مواقف الحسرة في القيامة: الحسرة على التفريط في زمان العمل، وإضاعة العمر في المعاصي، والترف، والاستكبار والاستهزاء، والمحادة والمعاندة، وإيذاء أولياء الله تعالى والدعاة إليه، وفي ذلك يقول عز من قائل، يبين حال أولئكم: (أن تقول نفس: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله، وإن كنت لمن الساخرين* أو تقول: لو أن الله هداني لكنت من المتقين* أو تقول حين ترى العذاب: لو

أن لي كرة؛ فأكون من المحسنين* بلى؛ قد جاءتك آياتي، فكذبت بها، واستكبرت، وكنت من الكافرين) الزمر:56-59.

قال صاحب الظلال عليه رحمات الله ورضوانه: (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) وهو هذا القرآن بين أيديكم (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة، وعلى التفريط في حق الله، وعلى السخرية بوعد الله: (أن تقول نفس:يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، وإن كنت لمن الساخرين)

أو تقول إن الله كتب عليَّ الضلال، ولو كتب عليَّ الهدى لاهتديت واتقيت: (أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين)! وهي علالة لا أصل لها؛ فالفرصة ها هي ذي سانحة، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة، وباب التوبة ها هو ذا مفتوح!

(أو تقول حين ترى العذاب:لو أن لي كرة فأكون من المحسنين)! وهي أمنية لا تنال؛ فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع، وها أنتم أولاء في دار العمل، وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود، وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل: (بلى؛ قد جاءتك آياتي، فكذبت بها، واستكبرت وكنت من الكافرين)!

ثم يمضي السياق وقد وصل بالقلوب والمشاعر إلى ساحة الآخرة، يمضي في عرض مشهد المكذبين والمتقين، في ذلك الموقف العظيم: (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة؛ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين؟* وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون)!

وهذا هو المصير الأخير. فريق مسود الوجوه من الخزي، ومن الكمد، ومن لفح الجحيم؛ هو فريق المتكبرين في هذه الأرض، الذين دُعوا إلى الله، وظلت الدعوة قائمة حتى بعد الإسراف في المعصية؛ فلم يلبوا هاتف النجاة، فهم اليوم في خزي تسود له الوجوه، وفريق ناج فائز لا يمسه

السوء، ولا يخالطه الحزن، هو فريق المتقين، الذين عاشوا في حذر من الآخرة، وفي طمع في رحمة الله تعالى؛ فهم اليوم يجدون النجاة والفوز والأمن والسلامة: (لا يمسهم السوء، ولا هم يحزنون)! ومن شاء بعد هذا فليلب النداء إلى الرحمة الندية الظليلة وراء الباب المفتوح، ومن شاء فليبق في إسرافه، وفي شروره؛حتى يأخذهم العذاب، وهم لا يشعرون!

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى (باختصار):

قوله تعالى: (أن تقول نفس) أن في موضع نصب، أي: كراهة أن تقول، وعند الكوفيين: لئلا تقول، وعند البصريين حذَر أن تقول!

(يا حسرتا) والأصل: يا حسرتي، فأبدل من الياء ألف؛ لأنها أخف وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت، وربما ألحقوا بها الهاء، أنشد الفراء:

يا مرحباه بحمار ناجية إذا أتى قربته للسانية

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف، لتدل على الإضافة، وكذلك قرأها أبو جعفر: يا حسرتاي! والحسرة الندامة.

(على ما فرطت في جنب الله) قال الحسن: في طاعة الله، وقال الضحاك: أي: في ذكر الله عز وجل، يعني القرآن والعمل به، وقال أبو عبيدة: في جنب الله أي: في ثواب الله!

وقال الفراء: الجنب القرب والجوار، يقال: فلان يعيش في جنب فلان أي: في جواره، ومنه (والصاحب بالجنب) أي: ما فرطت في طلب جواره وقربه، وهو الجنة.

وقال الزجاج: أي: على ما فرطت في الطريق، الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه، والعرب تسمي السبب والطريق إلى الشيء جنبًا، تقول: تجرعت في جنبك غصصًا، أي: لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك! وقيل: (في جنب الله) أي: في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله عز وجل

وثوابه. وقال ابن عرفة: أي: تركت من أمر الله، يقال: ما فعلت ذلك في جنب حاجتي، وكذا قال مجاهد، أي: ضيعت من أمر الله!

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما جلس رجل مجلسًا، ولا مشى ممشًى، ولا اضطجع مضطجعًا لم يذكر الله عز وجل فيه إلا كان عليه ترة يوم القيامة) أي: حسرة، خرجه أبو داود بمعناه!

وقال إبراهيم التيمي: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذي آتاه الله في الدنيا يوم القيامة في ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان له أجره، وعلى الآخر وزره! ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذي خوله الله إياه في الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل، أو يرى رجلًا يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمي هو!

(وإن كنت لمن الساخرين) أي وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن، وبالرسول في الدنيا، وبأولياء الله تعالى، قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله؛ حتى سخر من أهلها!

قوله تعالى: (أو تقول) هذه النفس (لو أن الله هداني) أي أرشدني إلى دينه (لكنت من المتقين) أي: الشرك والمعاصي، وهذا القول (لو أن الله هداني) لاهتديت، قول صدق، وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهم في قوله: (سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا) فهي كلمة حق أريد بها باطل، كما قال علي رضي الله عنه لما قال قائل من الخوارج: لا حكم إلا لله!

(أو تقول) يعني هذه النفس (حين ترى العذاب: لو أن لي كرة) رجعة، قال أبو صالح: كان رجل عالم في بني إسرائيل وجد رقعة: إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم له عمله

بعمل أهل النار، فيدخل النار! وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله، ثم يختم له عمله بعمل رجل من أهل الجنة، فيدخل الجنة!

فقال: ولأي شيء أتعب نفسي!؟ فترك عمله، وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس: لك عمر طويل فتمتع في الدنيا ثم تتوب، فأخذ في الفسوق، وأنفق ماله في الفجور، فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان، فقال: (يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله) ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه الندم، فأنزل الله خبره في القرآن!

وقال قتادة: هؤلاء أصناف: صنف منهم قال: (ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله)/ وصنف منهم قال: (لو أن الله هداني لكنت من المتقين)!/ وقال آخر: (لو أن لي كرة؛ فأكون من المحسنين) فقال الله تعالى ردًّا لكلامهم: (بلى قد جاءتك آياتي) قال الزجاج: (بلى) جواب النفي، وليس في الكلام لفظ النفي، ولكن معنى (لو أن الله هداني) ما هداني، وكأنه يقول: ما هديت، فقيل: بل قد بين لك طريق الهدى، فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن!

(آياتي) أي: القرآن، وقيل: عنى بالآيات المعجزات، أي: وضح الدليل فأنكرته وكذبته. (واستكبرت) أي تكبرت عن الإيمان، وكنت من الكافرين.

الحسرة على الأثقال والأوزار:

ومن مواقف الحسرة والندامة أيضًا، ثقل الأوزار وكثرة الذنوب، وخيبة أولئكم حين ينادون أحبتهم في الدنيا؛ ليحملوا عنهم بعض الأوزار، فيفر أحدهم (من أخيه* وأمه وأبيه* وصاحبته وبنيه* وفصيلته)! عبس: 34–37؛ ففي

هذا اليوم المذهل لا يحمل أحد عن أحد: (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: روي عن عكرمة أنه قال: بلغني أن اليهودي والنصراني يرى الرجل المسلم يوم القيامة، فيقول له: ألم أكن قد أسديت إليك يدًا؟ ألم أكن قد أحسنت إليك؟ فيقول بلى. فيقول: انفعني؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه!

وإن الرجل ليأتي إلى أبيه يوم القيامة فيقول: ألم أكن بك بارًّا، وعليك مشفقًا، وإليك محسنًا، وأنت ترى ما أنا فيه، فهب لي حسنة من حسناتك، أو احمل عني سيئة؛ فيقول: إن الذي سألتني يسير؛ ولكني أخاف مثل ما تخاف! وإن الأب ليقول لابنه مثل ذلك فيرد عليه نحوًا من هذا! وإن الرجل ليقول لزوجته: ألم أكن أحسن العشرة لك، فاحملي عني خطيئة لعلي أنجو، فتقول: إن ذلك ليسير ولكني أخاف مما تخاف منه! ثم تلا عكرمة: (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء؛ ولو كان ذا قربى)!

وقال الفضيل بن عياض: هي المرأة تلقى ولدها فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاء، ألم يكن ثديي لك سقاء، ألم يكن حجري لك وطاء، يقول: بلى يا أماه! فتقول: يا بني، قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنبًا واحدًا! فيقول: إليك عني يا أماه، فإني بذنبي عنك مشغول!

وجاء في تفسير السعدي رحمه الله تعالى: وقال تعالى: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ – وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى – إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد.

(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ) أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب، تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها (لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) فإنه لا يحمل عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه؛ بل يوم القيامة يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه، قلت: وهذا معنى (ذلك يوم التغابن)!

وقال في التحرير والتنوير: والإطلاق في القربى يشمل قريب القرابة كالأبوين والزوجين كما قال تعالى (يوم يفر المرء من أخيه* وأمه وأبيه) وهذا إبطال لاعتقاد الغَناء الذاتي بالتضامن والتحامل؛ فقد كان المشركون يقيسون أمور الآخرة على أمر الدنيا، فيعللون أنفسهم إذا هددوا بالبعث بأنه – إن صح – فإن لهم يومئذ شفعاء وأنصارًا؛ فهذا سياق توجيه هذا إلى المشركين.

ثم هو بعمومه ينسحب حكمه على جميع أهل المحشر؛ فلا يحمل أحد عن أحد إثمه.

وهذا لا ينافي الشفاعة الواردة في الحديث، كما تقدم في سورة سبأ، فإنها إنما تكون بإذن الله تعالى إظهارًا لكرامة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم! ولا ينافي ما جعله الله للمؤمنين من مكفرات الذنوب. كما ورد أن أفراط المؤمنين يشفعون لأمهاتهم، فتلك شفاعة جعلية، جعلها الله كرامة للأمهات المصابة من المؤمنات.

وقد كان من عمى بصائر بعض أهل الزيغ أن أغروا أتباعهم بالسير في طريق الباطل؛ على أن يحملوا هم عنهم ذنوبهم – إن كان ثمة ذنوب؛ كما زعموا – ثم يفاجؤون أنه لا يحمل أحد عن أحد؛ كما قال تعالى على ألسنة أولئكم: (وقال الذين كفروا للذين آمنوا: اتبعوا سبيلنا؛ ولنحمل خطاياكم، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء؛ إنهم لكاذبون* وليحملن أثقالهم، وأثقالًا مع أثقالهم، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) العنكبوت:12–13. وكما قال تبارك وتعالى: (ليحملوا أوزارهم – كاملة – يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) النحل:25.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى: بعد أن كذبهم في قولهم (ولنحمل خطاياكم) وكشف كيدهم بالمسلمين، عطف عليه ما أفاد أنهم غير ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين، وهم الأقوام الذين أضلوهم، وسولوا لهم الشرك والبهتان على وجه التأكيد بحملهم ذلك. فذكر الحمل تمثيل، والأثقال مجاز عن الذنوب والتبعات، وهو تمثيل للشقاء والعناء يوم القيامة بحال الذي يحمل متاعه وهو موقر به، فيزاد حمل أمتعة أناس آخرين!

وقد علم من مقام المقابلة أن هذا حمل تثقيل، وزيادة في العذاب، وليس حملًا يدفع التبعة عن المحمول عنه، وأن الأثقال المحمولة مع أثقالهم هي ذنوب الذين أضلوهم، وليس من بينها شيء من ذنوب المسلمين؛ لأن المسلمين سالمون من تضليل المشركين بما كشف الله لهم من بهتانهم!

وجملة (ليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) تذييل جامع لمؤاخذتهم بما اختلقوه من الإفك والتضليل؛ سواء ما أضلوا به أتباعهم، وما حاولوا به بتضليل المسلمين، فلم يقعوا في أشراكهم، وقد شمل ذلك كله لفظ الافتراء، كما عبر عن محاولتهم تغرير المسلمين بأنهم فيه كاذبون!

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا فقال: حدثنا.....عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ ما أرسل به، ثم قال: (إياكم والظلم، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي لا يجوزني اليوم ظلم! ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان ابن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيشخص الناس إليها أبصارهم، حتى يقوم بين يدي الله الرحمن عز وجل، ثم يأمر المنادي فينادي من كانت له تباعة – أو: ظلامة – عند فلان ابن فلان، فهلم. فيقبلون حتى يجتمعوا قيامًا بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي. فيقولون: كيف

نقضي عنه؟ فيقول لهم: خذوا لهم من حسناته. فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي. فيقولون: لم يبق له حسنة. فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه) ثم نزع النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة: (وليحملن أثقالهم، وأثقالًا مع أثقالهم، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون)!

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح، من غير هذا الوجه!

حسرة متديني النحل والأديان الباطلة:

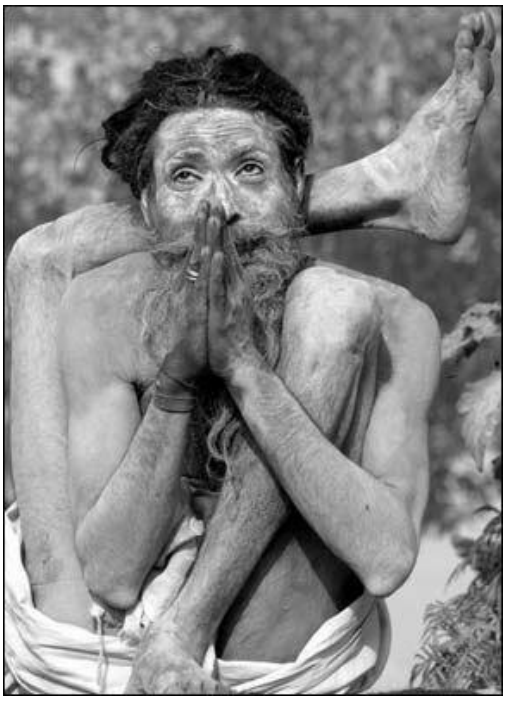

ومن مواقف الحسرة يوم الدين حسرة أتباع النحل الباطلة، الذين لم يبصروا، وكرهوا ما أنزل الله، واتبعوا مساخطه، واتخذوا الأنداد والشركاء أربابًا من دون، ونصبوا في الاحتفاء بها وعبادتها!

وقد تأول المفسرون معنى قوله تعالى في سورة الغاشية:2–7: (وجوه يومئذ ناعمة* عاملة ناصية* تصلى نارًا حامية* تسقى من عين آنية* ليس لهم طعام إلا من ضريع* لا يسمن ولا يغني من جوع) على وجوه، منها: معتقَد أولئك الذين يدينون ديانات باطلة، وينتحلون نحلًا متهافتة، يعتقدونها أصوب من الوحدانية، وأولى من الإسلام بالاتباع، فهم يترهبنون، ويحرمون أنفسهم الطيبات، ويعبدون وهمًا ينصبون في عبادته، ثم هم يوم الكتاب يوقنون إفك ما كانوا عليه، ومن مؤاخذتهم على تفريطهم، وعدم تتبعهم للحق، فاتباعهم إياهم، كما فعل كثير من أتباع الأديان، الذين، بحثوا، وفتشوا، ودأبوا حتى هدوا إلى صراط مستقيم.

وفي هذا المعنى قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى (باختصار وتصرف كثير مني):

(خاشعة) أي ذليلة بالعذاب، وكل متضائل ساكن خاشع. يقال: خشع في صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه. وخشع الصوت: خفي، قال الله تعالى: (وخشعت الأصوات للرحمن) طه:108.

والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه. والمراد وجوه الكفار كلهم، قاله يحيى بن سلام. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى، قاله ابن عباس. ثم قال: (عاملة ناصبة) فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل. فالمعنى: وجوه (عاملة ناصبة) في الدنيا (خاشعة) في الآخرة.

(ناصبة) أي تعبة. يقال: نصِب ينصب نصَبا: إذا تعب، روى الضحاك عن ابن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر مثل عبدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصًا له.

وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: هم الرهبان أصحاب الصوامع، وقاله ابن عباس.

وروى عن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهل، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى. فقال له: يا أمير المؤمنين: ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمرًا فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله عز وجل (وجوه يومئذ خاشعة* عاملة ناصبة) قال الكسائي: التقهل: رثاثة الهيئة، ورجل متقهل: يابس الجلد سيئ الحال.

وعن علي رضي الله عنه أنهم أهل حروراء يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يمرقون من الدين كما تمرق السهم من الرمية...) الحديث.

وللعلامة الشنقيطي في الأضواء تفصيل – كعادته رحمه الله – معجب، إذ يقول:

وقد اختلف في زمن العمل والنصب هذين: هل هو كان منها في الدنيا، أم هو واقع منهم فعلا في الآخرة؟ وما هو على كلا التقديرين؟

فالذين قالوا: هو كان منهم في الدنيا، منهم من قال: عمل ونصب في العبادات الفاسدة؛ كعمل الرهبان والقسيسين والمبتدعة الضالين، فلم ينفعهم يوم القيامة، أي: كما في قوله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا).

ومنهم من قال: عمل ونصب والتذّ، فيما لا يرضي الله، فعامله الله بنقيض قصده في الآخرة، ولكن هذا الوجه ضعفه ظاهر؛ لأن من هذه حالهم لا يعدون في عمل ونصب، بل في متعة ولذة.

والذين قالوا: سيقع منهم بالفعل يوم القيامة، اتفقوا على أنه عمل ونصب في النار من جر السلاسل، عياذًا بالله، وصعودهم وهبوطهم الوهاد والوديان، أي: كما في قوله تعالى: (سأرهقه صعودًا) وقوله: (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابًا صعدًا)!

وقد ذكر الفخر الرازي تقسيمًا ثلاثيًّا، فقال: إما أن يكون ذلك كله في الدنيا، أو كله في الآخرة، أو بعضه في الدنيا وبعضه في الآخرة، ولم يرجح قسمًا منها؛ إلا أن وجه القول: بأنها في الدنيا، وهي في القسيسين ونحوهم. فقال: لما نصبوا في عبادة إله وصفوه بما ليس متصفًا به، وإنما تخيلوه تخيلًا، أي بقولهم: (ثالث ثلاثة) وقولهم: (عزير ابن الله) فكانت عبادتهم لتلك الذات المتخيلة لا لحقيقة الإله سبحانه!

ولا يبعد أن يقال على هذا الوجه: إن من كان ممن لا ينطق بالشهادتين، ويعمل على جهالة – فيما لا يعذر بجهله – أن يخشى عليه من هذه الآية، كما يخشى على من يعمل على علم، ولكن في بدعة وضلالة!

ومما يشهد للأول حديث المسيء صلاته. ولأثر حذيفة: رأى رجلًا يصلي فطفف في صلاته، فقال له: منذ كم تصلي هذه الصلاة؟ قال: منذ أربعين سنة. قال له: ما صليت منذ أربعين سنة، ولو مت على ذلك، مت على غير فطرة محمد صلى الله عليه وسلم! البخاري.

والأحاديث الواردة في ذلك على سبيل العمومات، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (من عمل عملًا ليس عليه أمري فهو رد) البخاري، أي: مردود، وحديث الحوض: (.... فيذاد أقوام عن حوضي، فأقول: أمتي أمتي، فيقال: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك؛ إنهم غيروا وبدلوا) البخاري، ونحو ذلك مما يوجب الانتباه إلى صحة العمل، وموافقته لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم!

وكذلك القسم الثاني، كما في قوله سبحانه: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا الذين ضل سعيهم الآية..). أما الراجح من القولين في زمن: عاملة ناصبة: أهو في الدنيا أم في الآخرة؟ فإنه القول بيوم القيامة، وهو مروي عن ابن عباس وجماعة، والأدلة على ذلك من نفس السياق. ولابن تيمية كلام جيد جدًّا في هذا الترجيح، ولم أقف على قول لغيره أقوى منه..... أ.هـ.

من عجائب زماننا زمان العلم والحرية والوعي والتنوير أن أكبر عدد من الأصنام في تاريخ البشرية يباع فيه! وفي الغرب حول الكنائس تجد عشرات المحلات التي تعرض صور آلهة معبودة بكم يورو للرب، بجانب الملابس الرياضية والأدوات الموسيقية وأصنام العفاريت كما في الصور، وتتخصص مصانع يملكها رأسماليون كبار في إنتاج هذه الآلهة بالجملة.. فانظر الصور أدناه وتأمل!

€9,90

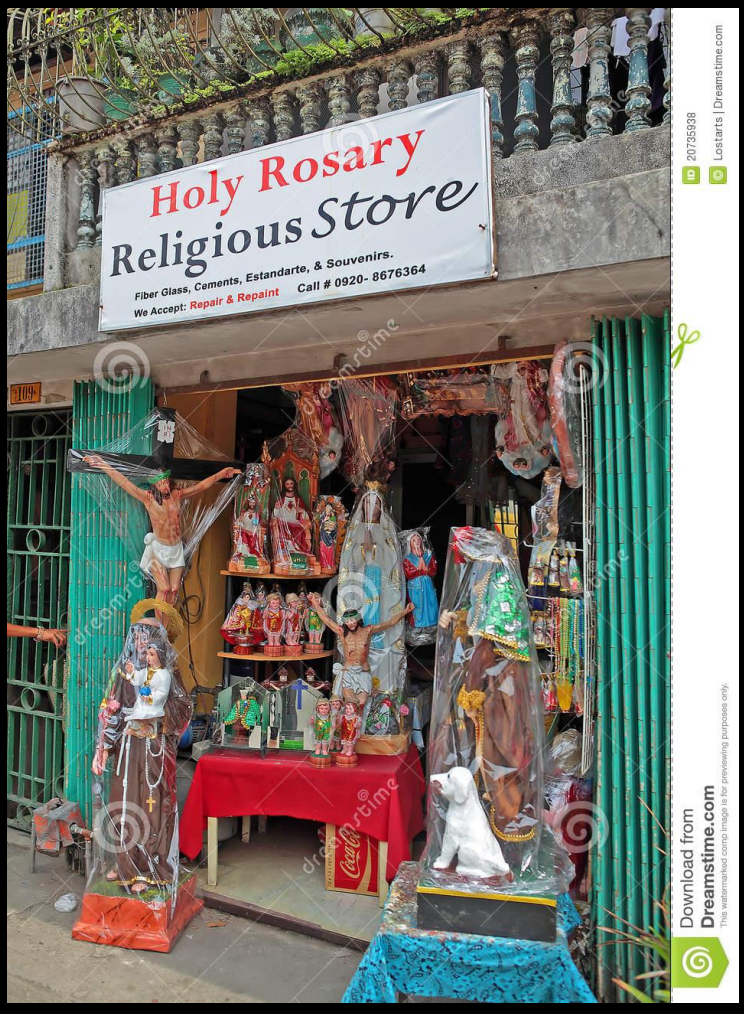

Holy Rosary
Religious Store
Fiber Glass, Cements, Estandarte, & Souvenirs.
We Accept: Repair & Repaint
Call # 0920- 8676364
ID 20735938
© Lostarts | Dreamstime.com
Download from
Dreamstime.com
This watermarked comp image is for previewing purposes only.

الحسرة على اتباع الفسدة المبطلين:

ومن أسباب الحسرة وبواعثها يوم القيامة: رؤية الأتباع المقودين لأسيادهم القادة في النار، وتلاومهم، وإلقاء كل منهم التبعة على الآخر، وتبرؤ كلا الفريقين من صاحبه؛ حيث لا تنفع البراءة، ولا تجدي الحسرات إلا مزيدًا من تقطع النياط! يقول الله تبارك وتعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا، يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبًّا لله، ولو يرى الذين ظلموا – إذ يرون العذاب – أن القوة لله جميعًا، وأن الله شديد العذاب* إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا، ورأوا العذاب، وتقطعت بهم الأسباب* وقال الذين اتَّبعوا: لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا؛ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار) البقرة:165–167.

قال صاحب التفسير الكبير المسمى البحر المحيط:

قال السدي: ترفع لهم الجنة فينظرون إلى بيوتهم فيها؛ لو أطاعوا الله تعالى، فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم الله تعالى، ثم تقسم بين المؤمنين فيرثونهم، فذلك حين يندمون!

وهذا معنى قول بعضهم، إن أعمالهم قد أحبط ثوابها كفرهم؛ لأن الكافر لا يثاب مع كفره!

ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر له أن ابن جُدعان كان يصل الرحم ويطعم المسكين، وسئل: هل ذلك نافعه؟ قال: (لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) صحيح مسلم! ومنه قوله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا).

وقيل: المعنى أعمالهم التي تقربوا بها إلى رؤسائهم؛ من تعظيمهم، والانقياد لأمرهم.

والظاهر أنها الأعمال التي اتبعوا فيها رؤساءهم وقادتهم – وهي الكفر والمعاصي – وكانت حسرة عليهم، لأنهم رأوها مسطورة في صحائفهم، وتيقنوا الجزاء عليها، وكان يمكنهم تركها والعدول عنها، لو شاء الله.

(وما هم بخارجين من النار) هذا يدل على دخول النار، إذ لا يقال: ما زيد بخارج من كذا إلا بعد الدخول. ولم يتقدم في الآية نص على دخولهم، إنما تقدم رؤيتهم العذاب ومفاوضة بسبب تبرؤ المتبوعين من الأتباع، وجاء الخبر مصحوبًا بالباء الدالة على التوكيد.

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: .... ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم، وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا، ورأوا العذاب، وتقطعت بهم الأسباب): تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في دار الدنيا، فتقول الملائكة: (تبرأنا إليك؛ ما كانوا إيانا يعبدون) القصص: 63، ويقولون: (سبحانك أنت ولينا من دونهم؛ بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مؤمنون) سبأ:4 1.

والجن أيضًا تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون* وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء، وكانوا بعبادتهم كافرين) الأحقاف: 6،5.

وقال تعالى: (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا* كلا؛ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا) مريم:81 –82..

وقال الخليل عليه السلام لقومه: (إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا؛ مودة بينكم في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضًا، ومأواكم النار، وما لكم من ناصرين) العنكبوت: 25..

وقال تعالى: (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم، يرجع بعضهم إلى بعض القول؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين* قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين* وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار؛ إذ تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أندادًا، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا؛ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) سبأ:31–33.

وقال تعالى: (وقال الشيطان لما قضي الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم؛ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم؛ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي، إني كفرت بما أشركتمون من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم) إبراهيم: 22.

وقوله: (ورأوا العذاب، وتقطعت بهم الأسباب) أي: عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل، وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلًا ولا مصرفًا! قال عطاء ومجاهد عن ابن عباس: (وتقطعت بهم الأسباب) قال: المودة.

وقوله: (وقال الذين اتبعوا: لو أن لنا كرة؛ فنتبرأ منهم، كما تبرؤوا منا) أي: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا؛ حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحد الله وحده بالعبادة. وهم كاذبون في هذا، بل (لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك؛ ولهذا قال: (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار)! أي: تذهب وتضمحل؛ كما قال الله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا) الفرقان: 23.

وقال تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) الآية إبراهيم: 18.. وقال تعالى: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة، يحسبه الظمآن ماء) الآية، النور: 39، ولهذا قال تعالى: (وما هم بخارجين من النار).

وفي المعنى نفسه قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى، في قوله عز وجل: (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا* وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) الأحزاب:66–67: وهذا التقليب تغيير ألوانهم بلفح النار، فتسود مرة وتخضر أخرى. وإذا بدلت جلودهم بجلود أخر فحينئذٍ يتمنون أنهم ما كفروا؛ يقولون يا ليتنا.

ويجوز أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلب وجوههم في النار: (يا ليتنا أطعنا الله، وأطعنا الرسولا) أي لم نكفر فننجو من هذا العذاب كما نجا المؤمنون.

(وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) قرأ الحسن: (ساداتنا) بكسر التاء، جمع سادة. وكان في هذا زجر عن التقليد. والسادة جمع السيد، وهو فعَلة، مثل كتبة وفجرة. وساداتنا جمع الجمع. والسادة والكبراء بمعنى. والأظهر العموم في القادة والرؤساء في الشرك والضلالة، أي أطعناهم في معصيتك، وما دعونا إليه (فأضلونا السبيلا) أي عن السبيل، وهو التوحيد والإضلال لا يتعدى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجر، كقوله: (لقد أضلني عن الذكر)!

حسرة من يذادون عن الحوض:

ومن أعظم أوقات الحسرة، ما سيجده العطاش يوم تجف الحلوق، وتقترب الشمس بلهيبها من الرؤوس، ويلجم العرق العباد إلجامًا، فيكون الملجأ إلى حوض محمد صلي الله عليه وسلم، ليسقي أتباعه، الحريصين على سنته الشريفة، شربة لا يظمؤون بعدها أبدًا؛ اللهم لا تحرمنا شربة من يده المباركة، نروَى بها يوم الزحام.

ثم يأتي أقوام من أمته صلى الله عليه وسلم، طامعون في شربة ترطب حلوقهم، وتنعش أجسادهم، وترد إليهم قلوبهم، فإذا بالملائكة تدفعهم بعيدًا؛ تذودهم عن الحوض، وتردّهم عن وروده!

فيلحظ الرؤوف الرحيم صلى الله عليه وسلم ذلك، فيهتف بذي الحول والطول، والجبروت والملك؛ شفقة منه ورحمة: أي رب أمتى! كيف يذادون؟

فتنبئه الملائكة أن أولئك الذين يذادون مبتدعة، ضُلال، قد اشترعوا في الإسلام ما لم يأذن به الله، واخترعوا من العبادات ما لم يأت به رسول الله، وابتدعوا في طقوسهم من الغرائب ما لا يرضاه الله!

روي الإمام البخاري في كتاب الفتن، عن ابن أبي مليكة قال: قالت أسماء رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنا على حوضي أنتظر من يرد عليَّ، فيؤخذ بناس من دوني، فأقول: أمتي، فيقول: لا تدري، مشوا على القهقرى). قال ابن أبي مليكة: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن!

وروى أيضًا عن عبد الله رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنا فرطكم على الحوض، فليرفعنَّ إليَّ رجال منكم، حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي ربِّ أصحابي، يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك)!

وروى أيضًا عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا فرطكم على الحوض، من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدًا، ليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم)!

قال أبو حازم: فسمعني النعمان ابن أبي عياش وأنا أحدِّثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلًا؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيه قال: (إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدَّلوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدَّل بعدي)!

ومثل هذا حديث عائشة رضي الله عنها المتفق عليه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد)!

فيا ويل أصحاب البدع، الذين (زين لهم سوء أعمالهم) وهم (يحسبون أنهم يحسنون صنعًا) اللهم قناهم في الدنيا، وأبعدنا عنهم في الآخرة، وارزقنا شربة هنيئة من حوضه صلى الله عليه وسلم، لا نظمأ بعدها أبدًا!

جاء في موقع (الإسلام: سؤال وجواب)؛ باختصار وتصرف، عن أصناف الذين يذادون، في هذا اليوم العصيب؛ نسأله سبحانه العفو والعافية، والسلامة:

1. مرتدون عن الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا أسلموا في حياته ورأوه وهم على الإسلام.

2. مرتدون عن الإسلام في أواخر حياته صلى الله عليه وسلم، ولم يكن يعلم بكفرهم.

3. أهل النفاق ممن أظهر الإسلام، وأبطن الكفر.

4. أهل الأهواء الذين غيَّروا سنَّة النبي صلى الله وسلم وهديه، كالروافض، والخوارج.

5. وبعض العلماء يُدخل فيهم أهل الكبائر، وله ما يؤيد من السنَّة، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (9 / 514) عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَأْمُرُونَكُمْ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكِذْبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ) وصححه المحققون.

ومما يدل على أنهم من أمته صلى الله عليه وسلم: أنه عرفهم بالغرة والتحجيل، وهي سيما خاصة بهذه الأمة، ويكون تعرف النبي صلى الله عليهم وسلم هناك بصفاتهم، لا بأعيانهم؛ لأنهم جاءوا بعده.

ومما يدل على دخول المنافقين في اسم (أصحابي) قوله صلى الله عليه وسلم (لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) رواه البخاري (3518)، وهذا معنى لغوي بحت للصحبة، ليس أنهم استحقوا شرفها؛ لأن تعريف الصحابي الاصطلاحي لا يصدق على هؤلاء.

قال الشيخ عبد القاهر البغدادي رحمه الله: أجمع أهل السنَّة على أن الذين ارتدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من كِندة، وحنيفة، وفزارة، وبني أسد، وبني بكر بن وائل، لم يكونوا من الأنصار، ولا من المهاجرين قبل فتح مكة، وإنما أطلق الشرع اسم المهاجرين على من هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكة، وأولئك بحمد الله ومنِّه درجوا على الدين القويم، والصراط المستقيم. وأجمع أهل السنة على أن من شهد مع رسول الله بدرًا: من أهل الجنة، وكذلك كل مَن شهد معه بيعة الرضوان بالحديبية. الفَرْق بين الفِرق (ص 353).

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى: والأظهر: أنهم من الداخلين في غمار هذه الأمة؛ لأجل ما دل على ذلك فيهم، وهو الغرة والتحجيل؛ لأن ذلك لا يكون لأهل الكفر المحض، كان كفرهم أصلًا، أو ارتدادًا. ولقوله: (قد بدلوا بعدك)، ولو كان الكفر: لقال: قد كفروا بعدك.

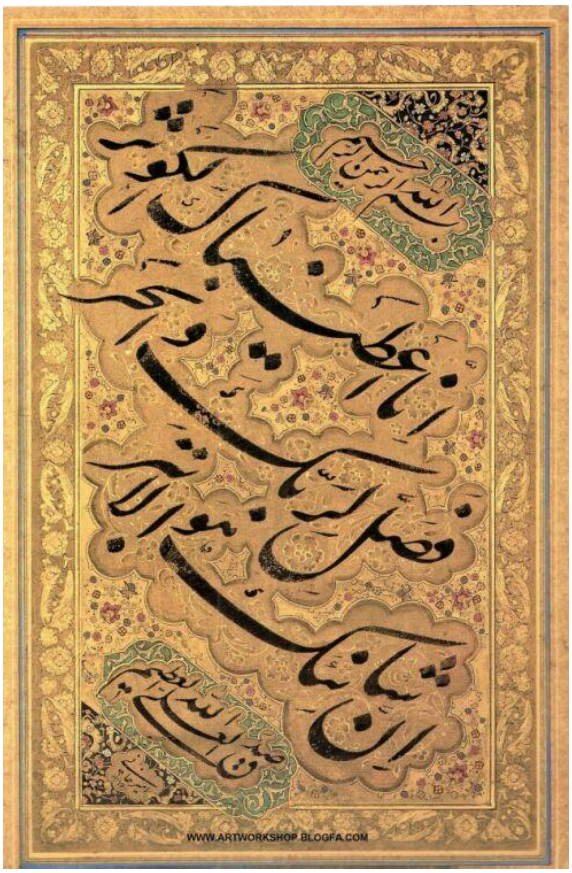

وأقرب ما يحمل عليه: تبديل السنة، وهو واقع على أهل البدع. ويجري هذا المجرى كل من اتخذ السنَّة والعمل بها حيلةً وذريعةً إلى نيل حطام الدنيا، لا على التعبد بها لله تعالى؛ لأنه تبديل لها، وإخراج لها عن وضعها الشرعي. الاعتصام (96/1).

وقال القرطبي رحمه الله: قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكلُّ مَن ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله: فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طردًا: مَن خالف جماعة المسلمين،

وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدِّلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور، والظلم، وتطميس الحق، وقتل أهله، وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر، المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ، والأهواء، والبدع.

ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد، وعلى هذا التقدير يكون نور الوضوء، يُعرفون به، ثم يقال لهم (سحقًا)، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يُظهرون الإيمان، ويُسرون الكفر: فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف له الغطاء فيقول لهم: (سحقًا سحقًا)، ولا يخلد في النار إلا كافر، جاحد، مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة " (ص 352).

الحسرة عند العذاب:

لقد هدد الله تعالى المعاندين المتطاولين بالعذاب الشديد: (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلًا) الفرقان:42.. وتوعدهم سبحانه بالويل: (فويل للذين كفروا من النار) ص:27!

وسيعلن أولئكم عن حسرتهم ووجعهم حين يذوقون شيئًا من عذابها، بل عند الإحساس بلفحها، يقول الله تبارك وتعالى: (قل إنما أنذركم بالوحي، ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون* ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن: يا ويلنا؛ إنا كنا ظالمين* ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئًا؛ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين) الأنبياء:45-47. وقد اختلف المفسرون في معنى النفح هنا:

قال في فتح القدير: المراد بالنفحة القليل، مأخوذ من نفح المسك، قاله ابن كيسان، ومنه قول الشاعر:

وعمرة من سروات النسا ء تنفح بالمسك أردانها

وقال المبرد: النفحة الدفعة من الشيء: التي دون معظمه، يقال نفحه نفحة بالسيف؛ إذا ضربه ضربة خفيفة، وقيل: هي الطرف.

والمعنى متقارب: أي ولئن مسهم أقل شيء من العذاب (ليقولن: يا ويلنا؛ إنا كنا ظالمين) أي ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك، ويعترفون عليها بالظلم)!

وقال القرطبي: النفحة في اللغة الدفعة اليسيرة؛ فالمعنى: ولئن مسهم أقل شيء من العذاب (ليقولن: يا ويلنا؛ إنا كنا ظالمين) أي متعدين، فيعترفون؛ حين لا ينفعهم الاعتراف.

وفي التحرير والتنوير: والنفحة: المرة من الرضخ في العطية، يقال: نفحه بشيء إذا أعطاه. وفي مادة النفح أنه عطاء قليل نزر. وبضميمة بناء المرة فيها، والتنكير، وإسناد المس إليها دون فعل آخر: أربع مبالغات في التقليل، فما ظنك بعذاب يدفع قليله من حل به إلى الإقرار باستحقاقه إياه، وإنشاء تعجبه من سوء حال نفسه!

ومعنى (إنا كنا ظالمين) إنا كنا معتدين على أنفسنا؛ إذ أعرضنا عن التأمل في صدق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم! فالظلم في هذه الآية مراد به الإشراك؛ لأن إشراكهم معروف لديهم، فليس مما يعرفونه إذا مستهم نفحة من العذاب.

وقال في الظلال: والنفحة تطلق غالبًا في الرحمة، ولكنها هنا تطلق في العذاب؛ كأنما ليقال: إن أخف مسة من عذاب ربك تطلقهم يجأرون بالاعتراف؛ ولكن حيث لا يجدي الاعتراف، فلقد سبق في سياق السورة مشهد القرى التي أخذها بأس الله تعالى، فنادى أهلها: (يا ويلنا إنا كنا ظالمين* فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدًا خامدين)! وإذن فهو الاعتراف بعد فوات الأوان. ولخير منه أن يسمعوا نذير الوحي وفي الوقت متسع؛ قبل أن تمسهم نفحة من العذاب!

الحسرة على عدم جدوى المال والسلطة:

وكم سيتحسر أصحاب النفوذ والسلطة، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، منخدعين بقوتهم، ظانين أنها تعصمهم من الله تعالى، أو تجيرهم من عذاب أليم: يقول الله تبارك وتعالى على لسان بعض أولئكم – أعاذنا الله من مصائرهم – وهم يتحسرون، طالبين الموت؛ خلاصًا مما يجدون: (يا ليتها كانت القاضية* ما أغنى عني ماليه* هلك عني سلطانيه) الحاقة:27–29!

قال في مفاتيح الغيب: في المراد بـ(سلطانيه) وجهان:

أحدهما: قال ابن عباس: ضلت عني حجتي التي كنت أحتج بها على محمد في الدنيا. وقال مقاتل: ضلت عني حجتي؛ يعني حين شهدت عليه الجوارح بالشرك.

والثاني: ذهب ملكي وتسلطي على الناس، وبقيت فقيرًا ذليلًا، وقيل معناه: إنني إنما كنت أنازع المحقين بسبب الملك والسلطان، فالآن ذهب ذلك الملك، وبقي الوبال!

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ورضي عنه:

إذا كان الرجل رأسًا في الشر، يدعو إليه، ويأمر به، فيكثر تبعه عليه، نودي باسمه واسم أبيه فيتقدم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود، في باطنه الحسنات، وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقرؤها، ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك وقد ردت عليك!

فيسود وجهه، ويعلوه الحزن، ويقنط من الخير، ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته، فلا يزداد إلا حزنًا، ولا يزداد وجهه إلا سوادًا.

فإذا بلغ آخر الكتاب وجد في: هذه سيئاتك وقد ضوعفت عليك! أي يضاعف عليه العذاب. ليس المعنى أنه يزاد عليه ما لم يعمل!

قال: فيعظم للنار، وتزرق عيناه، ويسود وجهه، ويكسى سرابيل القطران، فينطلق وهو يقول: (يا ليتني لم أوت كتابيه* ولم أدر ما حسابيه* يا ليتها كانت القاضية) يتمنى الموت!

(هلك عني سلطانيه) تفسير ابن عباس: هلكت عني حجتي. وهو قول مجاهد وعكرمة والسدي والضحاك. وقال ابن زيد: يعني سلطانيه في الدنيا، الذي هو الملك. وكان هذا الرجل مطاعًا في أصحابه!

وقال السيد في الظلال:

(وأما من أوتي كتابه بشماله) وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته، وأن إلى العذاب مصيره، فيقف في هذا المعرض الحافل الحاشد، وقفة المتحسر الكسير الكئيب، فيقول: (يا ليتني لم أوت كتابيه!* ولم أدر ما حسابيه!* يا ليتها كانت القاضية!* ما أغنى عني ماليه!* هلك عني سلطانيه)!

وهي وقفة طويلة، وحسرة مديدة، ونغمة يائسة، ولهجة بائسة.

والسياق يطيل عرض هذه الوقفة، حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضي بلا غاية! وذلك من عجائب العرض في إطالة بعض المواقف، وتقصير بعضها، وفق الإيحاء النفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس.

وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير، ومن ثم يطول ويطول، في تنغيم وتفصيل. ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف، ولم يؤت كتابه، ولم يدر ما حسابه؛ كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية، التي تنهي وجوده أصلًا فلا يعود بعدها شيئًا!

ثم يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه: (ما أغنى عني ماليه* هلك عني سلطانيه)! فلا المال أغنى أو نفع، ولا السلطان بقي أو دفع!

والرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة، وفي ياء العلة قبلها بعد المد بالألف، في تحزن وتحسر، هي جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقًا بليغًا!

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوي الجازم، بجلاله وهوله وروعته: (خذوه. فغلوه، ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه)!

يا للهول الهائل! ويا للرعب القاتل! ويا للجلال الماثل!

ومن أشد مواقف الأسى والإقرار الذليل، والتحسر الوجيع، إقرار المكذبين الرسل، الكاذبين على الله تعالى بكذبهم، وبهتانهم، ووقاحتهم في رد آيات الله تعالى: (ولو ترى إذ وُقفوا على النار، فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) الأنعام:27.

قال الشوكاني عليه رحمات الله في الفتح (باختصار):

(وقفوا) معناه حبسوا، وقيل: أُدخلوها، فتكون على بمعنى في، وقيل: هي بمعنى الباء: أي وقفوا بالنار أي بقربها، معاينين لها، ومفعول ترى محذوف، وجواب لو محذوف؛ ليذهب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراهم إذ وقفوا على النار لرأيت منظرًا هائلًا، وحالًا فظيعًا، فقالوا (ياليتنا نرد) أي إلى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا) أي التي جاءنا بها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، (ونكون من المؤمنين) بها العاملين بما فيها!

والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمني: أي تمنوا الرد، وألا يكذبوا، وأن يكونوا من المؤمنين....

قوله: (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) هذا إضراب عما يدل عليه التمني من الوعد بالإيمان والتصديق: أي لم يكن ذلك التمني منهم عن صدق نية، وخلوص اعتقاد؛ بل هو لسبب آخر، وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون: أي: ما يجحدون من الشرك، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم، فعدلوا إلى التمني والمواعيد الكاذبة!

وقيل: بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر، بشهادة جوارحهم عليهم!

وقيل: بدا لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة، كما قال تعالى: (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) الزمر:47.

وقال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه!

وقيل: المعنى: أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة، ولو ردوا إلى الدنيا – حسبما تمنوا – لعادوا لفعل ما نهوا عنه من القبائح، التي رأسها الشرك، كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند!

(وإنهم لكاذبون) أي متصفون بهذه الصفة، لا ينفكون عنها بحال من الأحوال؛ ولو شاهدوا ما شاهدوا، وقيل: المعنى: وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان.

وقال الشيخ رشيد في تفسيره المنار (باختصار وتصرف يسير):

وأما ما ظهر لهم (إذ وقفوا على النار) من حقيقة ما جاء به الرسل، فإنما مثله كمثل ما كان يلوح لهم في الدنيا من البينات والعبر، ألم تر كيف يكابرون فيها أنفسهم، ويغالطون عقلهم ووجدانهم، ويمارون مناظريهم وأخدانهم؟:

يشرب الفاسق الخمر فيصدع، أو يلعب القمار فيخسر، ويأكل المريض أو ضعيف البنية الطعام الشهي أو يكثر منه فيتضرر!

ويرى المخالف لشرع الله المنزل بالحق، أو لسننه الثابتة التي أقام بها نظام الخلق، ما حل من الشقاء بغيره ممن سبقه إلى مثل عمله، فيندم كل واحد ممن ذكرنا، ويتوب ويعزم على ألا يعود، وإنما يكون هذا عند فقد داعية العمل، ووجود داعية الترك؛ فإذا عادت الداعية إلى العمل عاد إليه خضوعًا لما اعتاد وألف، وترجيحًا لما يلذ على ما ينفع!

ومن وقائع العبر في ذلك ما حدث لأخ لي، عملت له عملية جراحية خدر قبلها بالبنج (كلورفورم) فكان من تأثيره فيه أنه شعر بأن روحه تسل من بدنه، وأنه قادم على ربه، وقد طال الأمد على اندمال جرحه، وكان قبل ظهور أمارات الشفاء منه يخاف أن يذهب بنفسه، فيندم على ما فات، ويتحسر على ما كان منه من التفريط والتقصير في الواجبات، وإضاعة الأوقات الطويلة في البطالة واللهو؛ وإن كان من المباحات! وعزم على الجد والتشمير فيما بقي من عمره، إن عافاه الله من مرضه، حتى عزم على الاستمرار على ترك شرب الدخان، الذي منعه الطبيب منه في أثناء أخذه بالعلاج!

ولكنه لما عاد إلى مثل ما كان عليه من الصحة – على أنها لم تكن سابغة – عاد كذلك لجميع أعماله وعاداته السابقة، على أنه تذكر من تلقاء نفسه هذه الآية: (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وعد ما وقع له شاهدًا لها ومثالًا تعرف به حقيقة تفسيرها! ويستنبط من الآية أن الطريقة المثلى لإقامة الناس على صراط الحق والفضيلة إنما هي حملهم على ذلك بالعمل والتعويد، مع التعليم وحسن التلقين، كما يربى الأطفال في الصغر، وكما يمرن الرجال على أعمال العسكر!

وأكثر البشر مسخرون لعادتهم، منقادون لما ألفوا في أول نشأتهم، لا يخالفون ذلك إلا قليلًا، يتكلفون المخالفة تكلفًا عند عروض ما يقتضي ذلك، فإذا زال المقتضى عادوا إلى عادهم وشنشنتهم، وعملوا على سابق شاكلتهم!

الخطاط البنغالي مختار شقدار

قال إبراهيم التيمي: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذي آتاه الله في الدنيا يوم القيامة في ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان له أجره، وعلى الآخر وزره!

ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذي خوله الله إياه في الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل، أو يرى رجلًا يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمي هو!

الحسرة على عدم طاعة الله تعالى:

عبد السلام البسيوني

الحسرة على عدم طاعة الله تعالى: (يوم تقلب وجوههم في النار، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) الأحزاب 66.

قال في التحرير والتنوير:

والتقليب: شدة القلب. والقلب: تغيير وضع الشيء على غير الجهة التي كان عليها.

والمعنى: يوم تقلب ملائكة العذاب وجوههم في النار، بغير اختيار منهم، أو يجعل الله ذلك التقلب في وجوههم لتنال النار جميع الوجه؛ كما يقلب الشواء على المشوَى لينضج على سواء، ولو كان لفح النار مقتصرًا على أحد جانبي الوجه، لكان للجانب الآخر بعض الراحة.

وتخصيص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء لأن حر النار يؤذي الوجوه أشد مما يؤذي بقية الجلد؛لأن الوجوه مقر الحواس الرقيقة: العيون والأفواه والآذان والمَنافس، كقوله تعالى: (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) .

وحرف (يا) في قوله (يا ليتنا) للتنبيه لقصد إسماع من يرثى لحالهم مثل يا حسرتنا. والتمني هنا كناية عن التندم على ما فات، وكذلك نحو (يا حسرتنا) أي أن الحسرة غير مجدية، وقد علموا يومئذ أن ما كان يأمرهم به النبيء صلى الله عليه وسلم هو تبليغ عن مراد الله منهم، وأنهم إذ عصوه فقد عصوا الله تعالى، فتمنوا يومئذ ألا يكونوا عصوا الرسول المبلغ عن الله تعالى.

وقال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

(يوم تقلب وجوههم في النار يقولون: (يا ليتنا أطعنا الله، وأطعنا الرسولا) أي: يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: (ويوم

يعض الظالم على يديه، يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا* يا ويلتا؛ ليتني لم أتخذ فلانًا خليلًا* لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، وكان الشيطان للإنسان خذولًا) الفرقان:27–29.

وقال تعالى: (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) الحجلا:2، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله، وأطاعوا الرسول في الدنيا:

الحسرة على مشاقة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

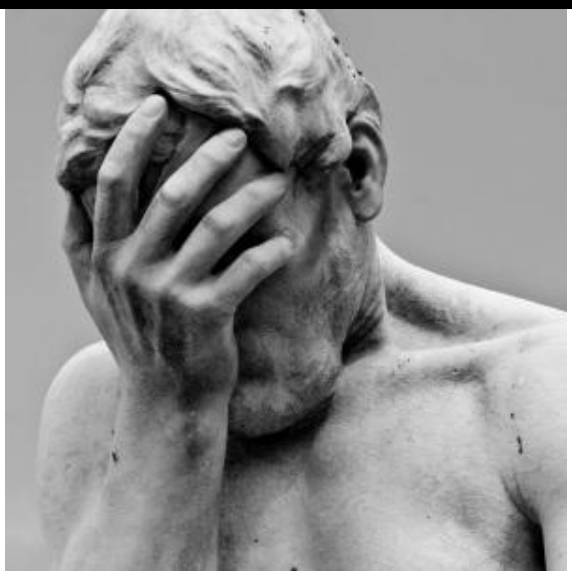

وكم ستكون في القيامة حسرات المشاقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، المتنكبين منهجه، الصادين عن سنته المعظمة: (ويوم يعض الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا* يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانًا خليلًا* لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني؛ وكان الشيطان للإنسان خذولًا) الفرقان:27.

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى في الأضواء:

من المشهور عند علماء التفسير أن الظالم الذي نزلت فيه هذه الآية هو عقبة ابن أبي معيط، وأن فلانًا الذي أضله عن الذكر أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف.

وعلى كل حال فالعبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب، فكل ظالم أطاع خليله في الكفر، حتى مات على ذلك يجري له مثل ما جرى لابن أبي معيط.

وما ذكره جل وعلا في هذه الآيات الكريمة جاء موضحًا في غيرها. فقوله (ويوم يعض الظالم على يديه) كناية عن شدة الندم والحسرة، لأن النادم ندمًا شديدًا، يعض على يديه، وندم الكافر يوم القيامة وحسرته الذي دلت عليه هذه الآية، جاء موضحًا في آيات أخر:

كقوله تعالى في سورة يونس:54: (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وقضي بينهم بالقسط).

وقوله تعالى في سورة سبأ:33: (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) الآية.

وقوله تعالى: (قالوا: ياحسرتنا على ما فرطنا فيها) الآية، الأنعام: 31، والحسرة أشد الندامة.

وقوله تعالى: (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) البقرة:167، إلى غير ذلك من الآيات!

وما ذكره هنا من أن الكافر يتمنى أن يكون آمن بالرسول في دار الدنيا، واتخذ معه سبيلًا، أي طريقًا إلى الجنة في قوله هنا: (يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا) جاء موضحًا في آيات أخر؛ كقوله تعالى: (يوم تقلب وجوههم في النار، يقولون: يا ليتنا أطعنا الله، وأطعنا الرسولا). الأحزاب:66!

وقوله تعالى: (يقول: يا ليتني قدمت لحياتي) الفجر:24..

وقوله تعالى: (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) الحجر:2، إلى غير ذلك من الآيات.

والسبيل التي يتمنى الكافر أن يتخذها مع الرسول المذكورة في هذه الآية، ذكرت أيضًا في آيات أخر، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة سورة الفرقان: (قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا) الفرقان:57..

وقوله تعالى: (إن هذه تذكرة؛ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلًا) في سورتي المزمل والإنسان.

ويقرب من معناه المآب المذكور في قوله تعالى: (ذلك اليوم الحق؛ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبًا) النبأ:39.

الحسرة على اتخاذ بعضهم أندادًا يحبونهم كحب الله:

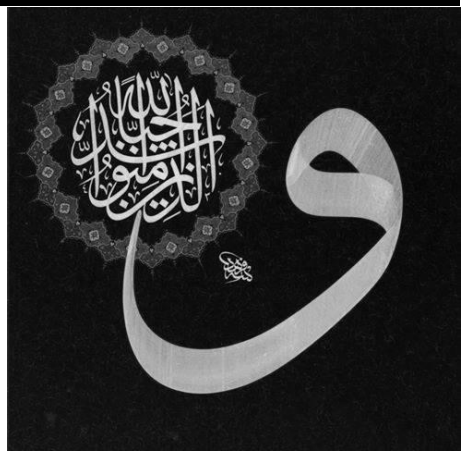

وهو تابع لما مر، لكن فيه طابع الغلو، والتأليه – ولو لاشعوريًّا – حتى إن بعضهم ليسجد لهذا البشر، ويطيعه في معصية الله، ويقدم مراده على أوامر الله تعالى، وعلى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله في الظلال:

أولئك الذين اتخذوا من دون الله أندادًا، فظلموا الحق، وظلموا أنفسهم: لو مدوا بأبصارهم إلى يوم يقفون بين يدي الله الواحد! لو تطلعوا ببصائرهم إلى يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين؛ لو يرون لرأوا (أن القوة لله جميعًا) فلا شركاء ولا أنداد (وأن الله شديد العذاب)!

لو يرون إذ تبرأ المتبوعون من التابعين، ورأوا العذاب، فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والأسباب، وانشغل كل بنفسه تابعًا كان أم متبوعًا، وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها، وعجزت عن وقاية أنفسها؛ فضلًا عن وقاية تابعيها، وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة، وكذب القيادات الضالة، وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب. (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا)!

وتبدى الحنق والغيظ من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة، وتمنوا لو يردون لهم الجميل؛ لو يعودون إلى الأرض، فيتبرأوا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها، التي خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب، إنه مشهد مؤثر: مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين، بين المحبين والمحبوبين! وهنا يجيء التعقيب الممض المؤلم: (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار)!

وقال الشيخ رشيد رضا رحمه الله تعالى في المنار في مبحث طويل ومعجب (باختصار وتصرف): (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله).. إلخ: هذه الآيات مبينة لحال الذين لا يعقلون، تلك الآيات التي أقامتها الآية السابقة على توحيد الله تعالى ورحمته؛ ولذلك جعلوا له أندادًا؛ يلتمسون منهم الخير والرحمة، ويدفعون ببركتهم البلاء والنقمة، ويأخذون عنهم الدين والشرعة. قال المفسرون: إن الند هو المماثل، وهم يعتقدون - غالبًا – أن الله تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وأن الأنداد وسطاء بينه وبين عباده، يقربونهم إليه، ويشفعون لهم عنده، ويقضون حاجاتهم بخوارق العادات، أو يقضيها هو لأجلهم.

ويحتجون لهذه العقيدة بأن المذنبين المقصرين لا يستطيعون الوصول إلى الله تعالى بأنفسهم، فلا بد لهم من واسطة بينهم وبينه تعالى؛ كما هو المعهود من الرعايا الضعفاء مع الملوك والأمراء، والوثنيون يقيسون الله تعالى على من يعظمونه من الرؤساء وعظماء الخلق، ولا سيما المستبدين منهم الذين استعبدوا الناس استعبادًا؛ بل تعبدوهم فعبدوهم، فالآيات الناطقة بأنهم إذا سئلوا: من خلق كذا وكذا؟ يقولون: الله، كثيرة، وقال فيهم مع ذلك: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) يونس:18 وقال سبحانه أيضًا: (والذين اتخذوا من دونه أولياء؛ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) الزمر:3، أي: يقولون ما نعبدهم إلخ.

والأنداد عند جمهور المفسرين أعم من الأصنام والأوثان، فيشمل الرؤساء الذين خضع لهم بعض الناس خضوعًا دينيًّا، ويدل عليه الآيات الآتية: (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) إلخ. فالمراد إذا من الند من يطلب منه ما لا يطلب إلا من الله عز وجل، أو يؤخذ عنه ما لا يؤخذ إلا عن الله تعالى، وبيان الأول – على ما قررناه مرارًا – أن للأسباب مسببات لا تعدوها بحكمة الله في نظام الخلق، وأن لله تعالى أفعالًا خاصة به، فطلب المسببات من أسبابها ليس من اتخاذ

الأنداد في شيء، وأن هناك أمورًا تخفى علينا أسبابها، ويعمى علينا طريق طِلابها، فيجب علينا بإرشاد الدين والفطرة أن نلجأ فيها إلى ذي القوة الغيبية، ونطلبها من مسبب الأسباب؛ لعله بعنايته ورحمته يهدينا إلى طريقها أو يبدلنا خيرا منها.

ويجب مع هذا بذل الجهد والطاقة في العمل بما نستطيع من الأسباب؛ حتى لا يبقى في الإمكان شيء، مع اعتقادنا بأن الأسباب كلها من فضل الله تعالى علينا ورحمته بنا؛ إذ هو سبحانه الذي جعلها طرقًا للمقاصد، وهدانا إليها بما وهبنا من العقل والمشاعر؛ فمن قصر في اتخاذ الأسباب اعتمادًا على الله فهو جاهل بالله، ومن التجأ إلى ما ليس بسبب من دون الله فهو مشرك بالله.

وهذا الذي يلجأ إليه – من إنسان مكرم كالأنبياء والصالحين، أو ملك من الملائكة المقربين أو ما دون ذلك من مظاهر الخليقة، أو صنم أو تمثال جعل تذكارًا لشيء من هذه – يسمى ندًّا لله وشريكًا له ووليًّا من دونه – سبحانه – وقد نطق القرآن بجميع هذه الأسماء التي سماها المشركون، ولم ينزل الله بها من سلطان.

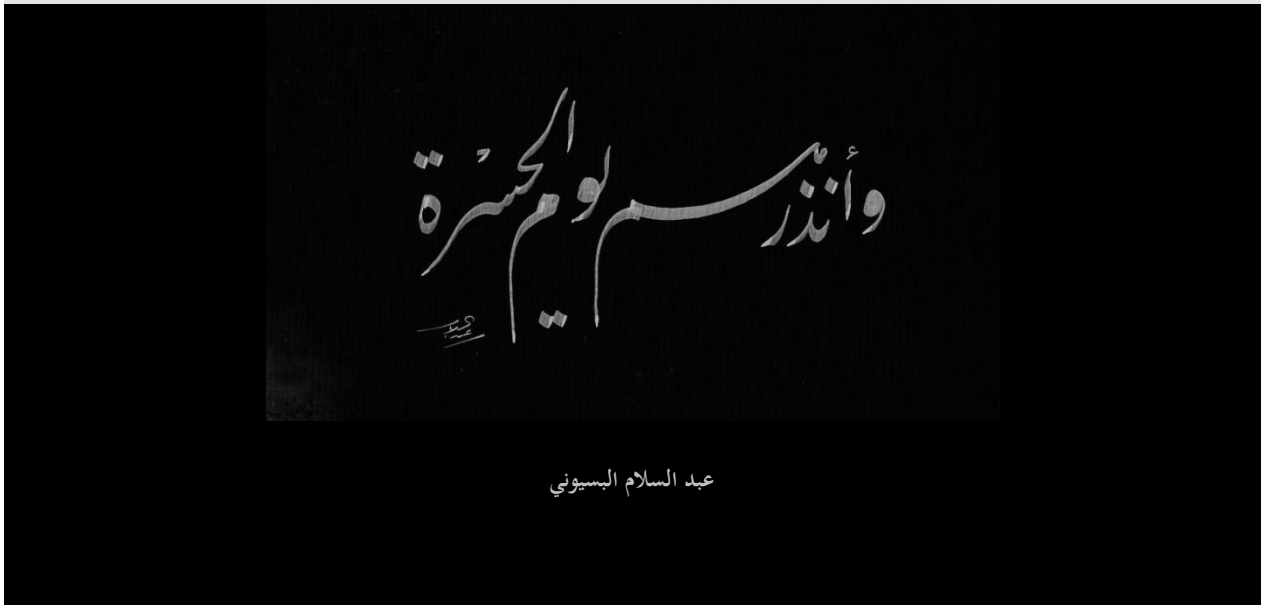

St-Takla.org

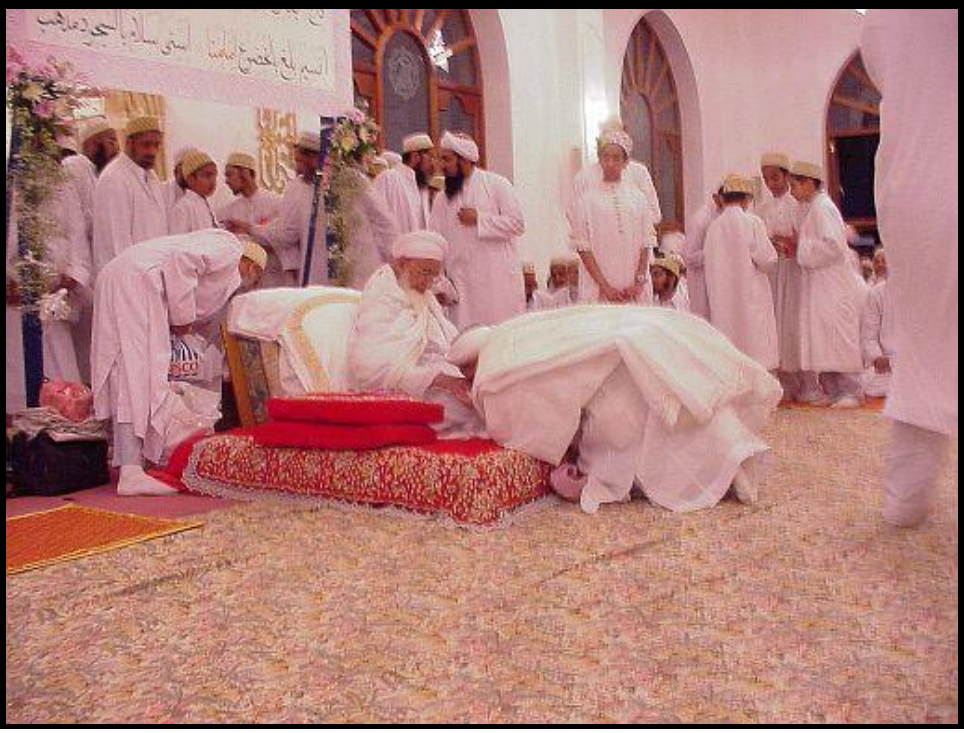

www.facebook.com/damietta22

بعد معركة الحجاب

وزير الداخلية التونسي يفرض بطائق ممغنطة خاصة بالمصلين!

بعد أن أنهى وزير الداخلية التونسي معاركه من أجل منع الحجاب عن التونسيات، لدرجة أن المرأة المتحجبة تخضع للمساءلة ويوقع ولي أمرها إقرارا بنزع الحجاب، ولدرجة أن بعض النساء التونسيات، بحسب جمعية تعنى بحقوق الإنسان، عنفن داخل مقرات الشرطة وتم تهديدهن بالاغتصاب إذا لم يمتثلن لقرار الدولة.. بعد هذه المعركة دخل الوزير الهادي مهني فصلا جديدا حينما أقر بضرورة حصول أي مواطن تونسي، يؤدي صلواته الخمس، على بطاقة ممغنطة.

لقد أعلن في مؤتمر صحفي في العاصمة عن بدء الإجراءات لترشيد الصلوات وارتياد المساجد من خلال وضع بطائق لكل مصلي يحدد فيها المسجد الذي يجب أن يؤدي فيه صلاته، والقريب من مقر سكناه أو مقر عمله. وستحمل بطاقة الصلاة هذه اسم المصلي وصورته ومقر سكناه، واسم المسجد الذي سيؤدي به الصلاة. أما صلاة الجمعة، التي يمكن أن يغير فيها المصلي المسجد المختار، فستوضع لها بطائق خاصة تحدد لكل واحد المسجد الذي يختاره.

ولتفعيل هذه الخطوة، سيكون على أئمة المساجد أن يتأكدوا من أن جميع المصلين داخل قاعة الصلاة حاملون لبطائقهم. كما يتعين على إمام المسجد طرد كل مصلي لا يحمل بطاقة الصلاة. أما إذا قرر المصلي الانقطاع عن الصلاة، فعليه أن يسلم البطاقة لأقرب مركز للشرطة.

أما السياح المسلمون فأصبح لزاما عليهم طلب بطاقة المصلي عند نقاط شرطة الحدود، وهي صالحة لكل المساجد على أن يتم إرجاعها قبل مغادرة التراب التونسي. ولتكون المراقبة صارمة، فسيتم تجهيز المساجد بآلات مغناطيسية لتسجيل الحضور. إذ يتعين على كل مصلي تسجيل حضوره عند الدخول إلى المسجد وعند الخروج منه.

زين العابدين بنعلي

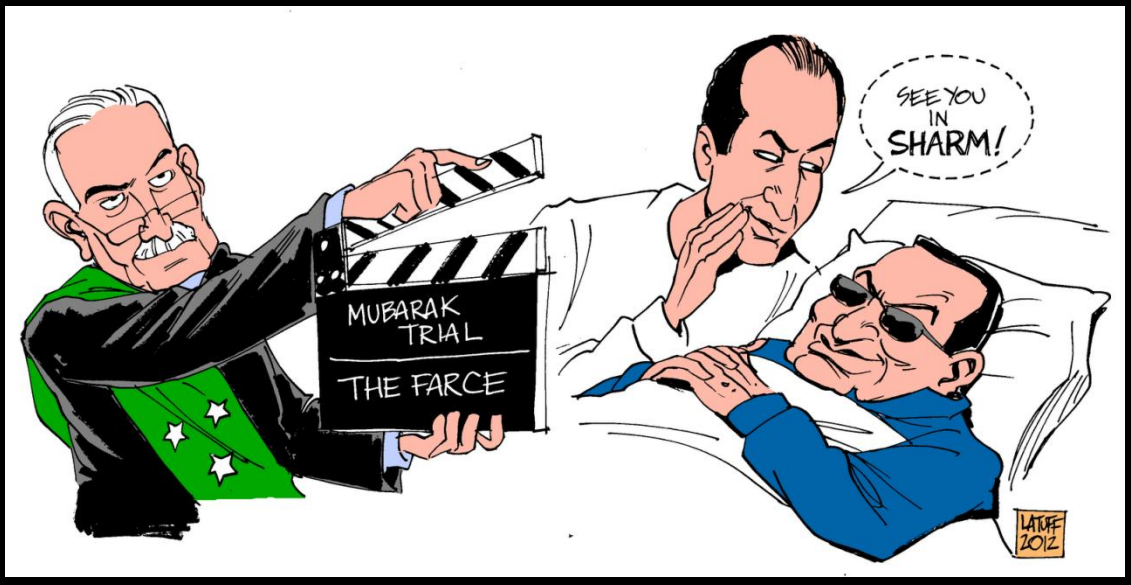

الحسرة على الشرك:

ومما سيتحسر عليه طوائف من البشر: شركهم بالله رب العالمين، أي نوع من الشرك: البشر، والحجر والشجر والموتى، والقبور، والجن، وغيرها مما اعتاد البشر أن يشركوه من الله تبارك وتعالى الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير،

وقد حكت لنا سورة الكهف حكاية ذلك المدل بماله وغناه، حتى أشرك بربه ومولاه، تبارك وتعالى، فقال بعد أن أحيط بثمره: (ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا) الكهف:24.

قال في الظلال:

(وأحيط بثمره، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها، ويقول: يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا) وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة، وصاحبها يقلب كفيه أسفًا وحزنًا على ماله الضائع وجهده الذاهب. وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته!

ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضيه غير قيمة الإيمان كان شركًا ينكره الآن، ويندم عليه، ويستعيذ منه بعد فوات الأوان.

هنا يتفرد الله عز وجل بالولاية والقدرة: فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره. وثوابه هو خير الثواب، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى: (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله، وما كان منتصرًا. هنالك الولاية لله الحق، هو خير ثوابًا وخير عقبًا)!

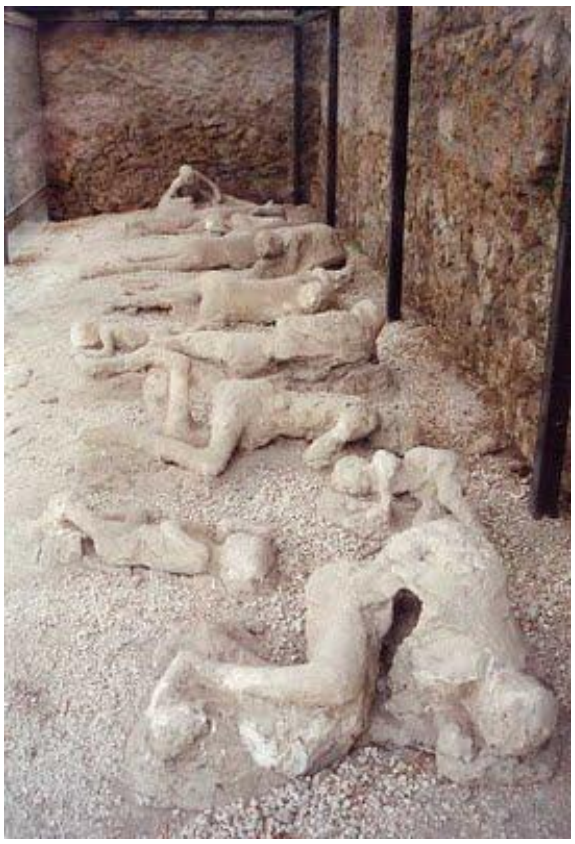

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفًا وندمًا وجلال الله يظلل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان..

وقال الشيخ السعدي في تفسيره

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42)

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) أي: أصابه عذاب، أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثماره، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ؛ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا) أي على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضًا على شركه، وشره، ولهذا قال: (وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)!

(وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ، وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا) أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا، وَأَعَزُّ نَفَرًا) فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئًا، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفس منتصرًا، وكيف ينتصر، أي: يكون له أنصار على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا؟! ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

الحسرة على اتخاذ خليل السوء؛ خصوصًا إبليس عليه لعائن الله تعالى:

وإذا كان من الناس شياطين، ومن الجنة شياطين، يمدون أخلائهم بالغي ثم لا يقصرون، ويغرونهم بالباطل، ويوقعون بينهم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدونهم عن ذكر الله وعن الصلاة، ويزينون لهم الشرك والكفر والفسوق والعصيان، فإنهم سيكفر بعض يوم القيامة ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا: يقول العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى في أضوائه:

وما ذكره من أن الكافر ينادي بالويل، ويتمنى أنه لم يتخذ من أضله خليلًا، ذكره في غير هذا الموضع، أما دعاء الكفار بالويل؛ فقد تقدم في قوله تعالى: (وإذا ألقوا منها مكانًا ضيقًا مقرنين دعوا هنالك ثبورًا* لا تدعوا اليوم ثبورًا واحدًا، وادعوا ثبورًا كثيرًا) الفرقان:**13–14**.

وأما تمنيهم لعدم طاعة من أضلهم، فقد ذكره سبحانه أيضًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا) آل عمران:**176**..

فلفظة لو في قوله تعالى: (لو أن لنا كرة) للتمني، ولذلك نصب الفعل المضارع بعد الفاء في قوله فنتبرأ منهم الآية. وهو دليل واضح على ندمهم على موالاتهم، وطاعتهم في الدنيا.

وما ذكره جل وعلا هنا من أن أخلاء الضلال من شياطين الإنس والجن، يضلون أخلاءهم عن الذكر بعد إذ جاءهم، ذكره في غير هذا الموضع: كقوله تعالى: (وإخوانهم يمدونهم في الغي، ثم لا يقصرون) الأعراف:**202**./ وقوله تعالى: (وقيضنا لهم قرناء، فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) الآية، فصلت:**25** / وقوله تعالى: (ويوم يحشرهم جميعًا؛ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) الآية، الأنعام:**128**/ وقوله تعالى: (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا

وكبراءنا فأضلونا السبيلا) الأحزاب:67/ وقوله تعالى: (حتى إذا اداركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم: ربنا هؤلاء أضلونا؛ فآتهم عذابا ضعفا من النار) الأعراف:38/ وقوله تعالى: (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم، يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) الآية، سبأ:31؛ إلى غير ذلك من الآيات،

وقوله تعالى هنا: (وكان الشيطان للإنسان خذولًا) الأظهر أنه من كلام الله، وليس من كلام الكافر النادم يوم القيامة. والخذول صيغة مبالغة، والعرب تقول: خذله إذا ترك نصره مع كونه يترقب النصر منه، ومنه قوله تعالى: (وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) آل عمران:160.

ومن الآيات الدالة على أن الشيطان يخذل الإنسان قوله تعالى: (وقال الشيطان لما قضي الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم؛ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم؛ ما أنا بمصرخكم، وما أنتم بمصرخي؛ إني كفرت بما أشركتموني من قبل) إبراهيم:22.. وقوله تعالى: (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم؛ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وقال: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون) الآية، الأنفال:48.

وقوله تعالى في هذه الآية: (لقد أضلني عن الذكر) الأظهر أن الذكر القرآن، وقوله: (لم أتخذ فلانًا) العرب تطلق لفظة فلان كناية عن العلم: أي لم أتخذ أبيًّا أو أمية خليلا، ويكنون عن علم الأنثى بفلانة، ومنه قول عروة بن حزام العذري:

ألا قاتل الله الوشاة وقولهم فلانة أضحت خلة لفلان

وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء قد يدخل قرينه النار. والتحذير من قرين السوء مشهور معروف..

وقد بين جل وعلا في سورة الصافات أن رجلًا من أهل الجنة أقسم بالله أن قرينه كاد يرديه؛ أي يهلكه بعذاب النار، ولكن لطف الله به فتداركه برحمته وإنعامه فهداه، وأنقذه من النار، وذلك في قوله تعالى: (قال قائل منهم إني كان لي قرين* يقول أئنك لمن المصدقين) إلى قوله تعالى: (فاطلع فرآه في سواء الجحيم* قال تالله إن كدت لتردين* ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) الصافات:51–57.

وقال الشيخ طاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تحريره وتنويره:

والداعي إلى الكناية بفلان: إما قصد إخفاء اسمه خيفة عليه، أو خيفة من أهلهم، أو للجهل به، أو لعدم الفائدة لذكره، أو لقصد نوع من له اسم علم.

وهذان الأخيران هما اللذان يجريان في هذه الآية؛ إن حملت على إرادة خصوص عقبة وأبي، أو حملت على إرادة كل مشرك له خليل صده عن اتباع الإسلام.

وإنما تمنى ألا يكون اتخذه خليلًا دون تمني أن يكون عصاه فيما سول له؛ قصدًا للاشمئزاز من خلته من أصلها؛ إذ كان الإضلال من أحوالها. وفيه إيماء إلى أن شأن الخلة: الثقة بالخليل، وحمل مشورته على النصح؛ فلا ينبغي أن يضع المرء خلته إلا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء؛ قال الله تعالى: (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم، لا يألونكم خبالًا) آل عمران:118، فعلى من يريد اصطفاء خليل أن يسير سيرته في خويصته؛ فإنه سيحمل من يخاله على ما يسير به لنفسه، وقد قال خالد بن زهير وهو ابن أخت أبي ذؤيب الهذلي:

فأول راض سنة من يسيرها

وهذا عندي هو محمل قول النبيء صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذًا خليلًا غير ربي؛ لاتخذت أبا بكر خليلًا) فإن مقام النبوءة يستدعي من الأخلاق ما هو فوق مكارم الأخلاق المتعارفة في الناس؛ فلا يليق به إلا متابعة ما لله من الكمالات بقدر الطاقة، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن.

وعلمنا بهذا أن أبا بكر أفضل الأمة مكارم أخلاق، بعد النبيء صلى الله عليه وسلم؛ لأن النبيء جعله المخير لخلته؛ لو كان متخذًا خليلًا غير الله تبارك وتعالى.

وجملة: (لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني) تعليلية لتمنيه ألا يكون اتخذ فلانًا خليلًا بأنه قد صدر عن خلته أعظم خسران لخليله؛ إذ أضله عن الحق بعد أن كاد يتمكن منه.

وقوله: (أضلني عن الذكر) معناه سول لي الانصراف عن الحق. والضلال: إضاعة الطريق وخطؤه بحيث يسلك طريقًا غير المقصود، فيقع في غير المكان الذي أراده، وإنما وقع في أرض العدو أو في مسبعة.

ويستعار الضلال للحياد عن الحق والرشد إلى الباطل والسفه، كما يستعار ضده وهو الهدى – الذي هو إصابة الطريق – لمعرفة الحق والصواب، حتى تساوى المعنيان الحقيقيان والمعنيان المجازيان لكثرة الاستعمال، ولذلك سموا الدليل الذي يسلك بالركب الطريق المقصود هاديًا.

والإضلال مستعار هنا للصرف عن الحق؛ لمناسبة استعارة السبيل لهدي الرسول صلى الله عليه وسلم. وليس مستعملًا هنا في المعنى الذي غلب على الباطل بقرينة تعديته بحرف (عن) في قوله (عن الذكر) فإنه لو كان الإضلال هو تسويل الضلال لما احتاج إلى تعديته، ولكن أريد هنا متابعة التمثيل السابق.

والذكر: هو القرآن، أي نهاني عن التدبر فيه، والاستماع له بعد أن قاربت فهمه. والمجيء في قوله: (إذ جاءني) مستعمل في إسماعه القرآن؛ فكأن القرآن جاء حل عنده.

وقيل: الذكر: كلمة الشهادة، بناء على تخصيص الظالم بعقبة ابن أبي معيط كما تقدم، وتأتي في ذلك الوجوه المتقدمة؛ فإن كلمة الشهادة لما كانت سبب النجاة مثلت بسبيل الرسول الهادي، ومثل الصرف عنها بالإضلال عن السبيل.

وجملة: (وكان الشيطان للإنسان خذولًا) تذييل من كلام الله تعالى لا من كلام الظالم؛ تنبيهًا للناس على أن كل هذا الإضلال من عمل الشيطان؛ فهو الذي يسول لخليل الظالم إضلال خليله؛ لأن الشيطان خذول الإنسان، أي مجبول على شدة خذله.

والخذل: ترك نصر المستنجد مع القدرة على نصره، وقد تقدم عند قوله تعالى: (إن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) في سورة آل عمران.

فإذا أعان على الهزيمة فهو أشد الخذل، وهو المقصود من صيغة المبالغة في وصف الشيطان بخذل الإنسان؛ لأن الشيطان يكيد الإنسان فيورطه في الضر فهو خذول.

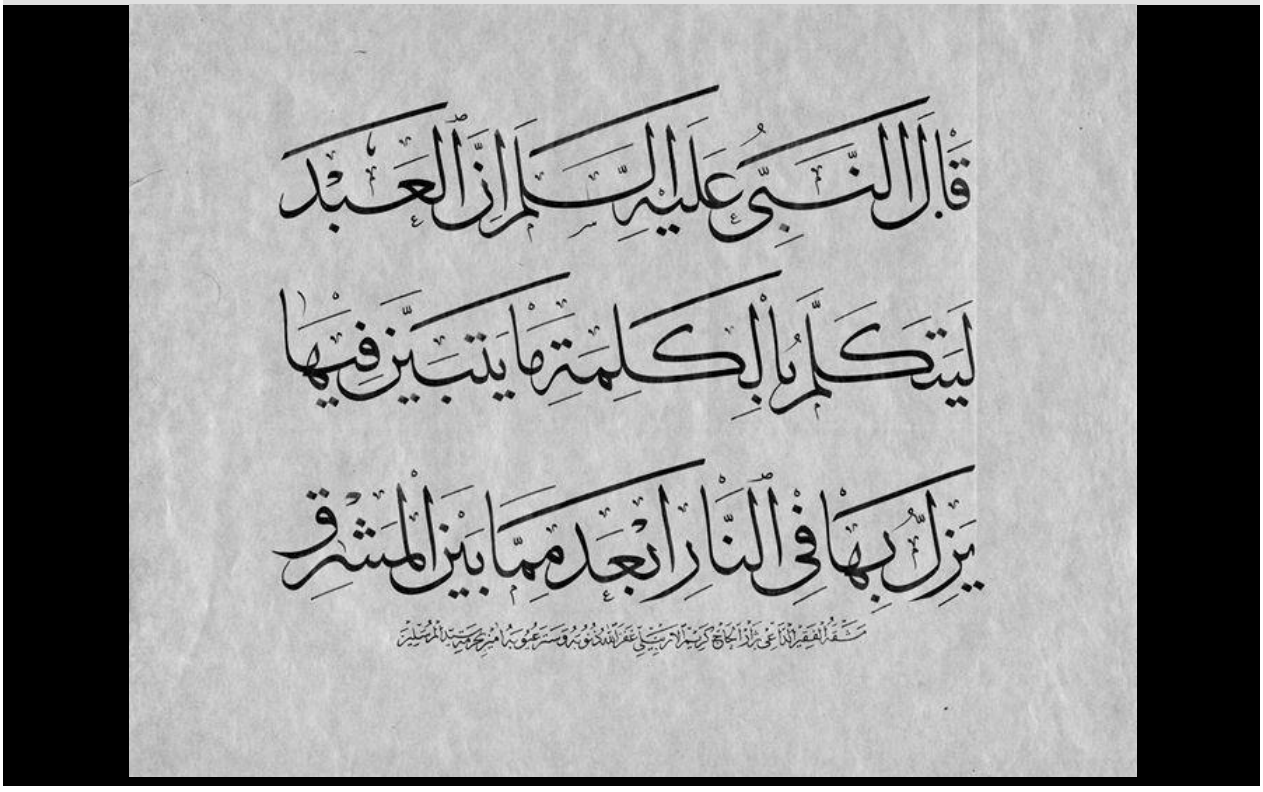

الحسرة على طاعة الشيطان القرين عليه لعائن الله تعالى:

ومن أكبر مواطن الحسرة انكشاف العلاقة مع إبليس عليه اللعنة، وتمني تابعه أن لو كان بينه وبينه ما بين المشرق والمغربين؛ كما قال تبارك وتعالى: (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا، فهو له قرين* وإنهم ليصدونهم عن السبيل، ويحسبون أنهم مهتدون* حتى إذا جاءنا قال: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين) الزخرف:36-38.

قال العلامة الشنقيطي عليه رحمات الله ورضوانه في الأضواء، عن الشيطان القرين:

لعلماء التفسير في تفسير قوله: (قيضنا) عبارات يرجع بعضها في المعنى إلى بعض، كقول بعضهم: (وقيضنا لهم قرناء) أي جئناهم بهم، وأتحناهم لهم/ وكقول بعضهم: (قيضنا) أي هيأنا/ وقول بعضهم: (قيضنا) أي: سلطنا/ وقول بعضهم: أي بعثنا ووكلنا/ وقول بعضهم: (قيضنا) أي سببنا/ وقول بعضهم: قدرنا، ونحو ذلك من العبارات؛ فإن جميع تلك العبارات راجع إلى شيء

واحد، وهو أن الله تبارك وتعالى هيأ للكافرين قرناء من الشياطين يضلونهم عن الهدى، ويزينون لهم الكفر والمعاصي، وقدرهم عليهم.

والقرناء: جمع قرين، وهم قرناؤهم من الشياطين على التحقيق.

وقوله تعالى: (فزينوا لهم ما بين أيديهم) أي من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة (وما خلفهم) أي من أمر الآخرة، فدعوهم إلى التكذيب به، وإنكار البعث!

وما تضمنته هذه الآية الكريمة أنه تعالى قيض للكفار قرناء من الشياطين، يضلونهم عن الهدى بينه في مواضع أخر من كتابه؛ وزاد في بعضها سبب تقييضهم لهم، وأنهم مع إضلالهم لهم يظنون أنهم مهتدون، وأن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه من الشياطين بعد عظيم، وأنه يذمه ذلك اليوم، كما قال تعالى: (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين* وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون* حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) الزخرف:36-38. فترتيبه قوله: (نقيض له شيطانًا) على قوله: (ومن يعش عن ذكر الرحمن) ترتيب الجزاء على الشرط يدل على أن سبب تقييضه له هو غفلته عن ذكر الرحمن!

ومن الآيات الدالة على تقييض الشياطين للكفار ليضلوهم، قوله تعالى: (..أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا) مريم:83،

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) الأنعام:128، أي استكثرتم من إضلال الإنس في دار الدنيا، وقوله: (وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) الأعراف:202.

ومنها أيضًا قوله تعالى: (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان) إلى قوله: (ولقد أضل منكم جبلًّا كثيرًا) يا سين:60–62، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دل قوله في آية الزخرف (فبئس القرين) على أن قرناء الشياطين المذكورين في آية فصلت، وآية الزخرف وغيرهما جديرون بالذم الشديد، وقد صرح تعالى بذلك في سورة النساء، في قوله سبحانه: (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينًا) النساء: 38، لأن قوله تعالى: (فساء قرينًا) بمعنى فبئس القرين؛ لأن كلًا من ساء وبئس فعل جامد لإنشاء الذم.

واعلم أن الله تعالى بين أن الكفار الذي أضلهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى، فهم يحسبون أشد الضلال أحسن الهدى، كما قال تعالى عنهم: (وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) الزخرف:37، وقال: (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) الأعراف:30.

وبين تعالى أنهم بسبب ذلك الظن الفاسد هم أخسر الناس أعمالًا، في قوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا* الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا) الكهف:103–104.

وقال في فتح القدير:

(فهو له قرين) أي: ملازم له لا يفارقه، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه.

(وإنهم ليصدونهم عن السبيل) أي: وإن الشياطين الذين يقيضهم الله لكل أحد ممن يعشو عن ذكر الرحمن – كما هو معني من – ليصدونهم أي: يحولون بينهم وبين سبيل الحق ويمنعونهم منه، ويوسوسون لهم أنهم على الهدى؛ حتى يظنوا صدق ما يوسوسون به، وهو معنى قوله: (ويحسبون أنهم مهتدون) أي: يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم في أنفسهم مهتدون!

(حتى إذا جاءنا) أي الكافر، أو جاء كل واحد منها، قال الكافر مخاطبا للشيطان: (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين) أي: بعد ما بين المشرق والمغرب، فغلب المشرق على المغرب!

قال مقاتل: يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة من مشرق أقصر يوم في السنة، والأول أولى، وبه قال الفراء(فبئس القرين) المخصوص بالذم، محذوف أي: أنت أيها الشيطان.

(ولن ينفعكم اليوم) هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة (إذ ظلمتم) أي: لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، (أنكم في العذاب مشتركون) أي: لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب.

قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب؛ لأن لكل أحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر منه.

وقيل: إنها للتعليل لنفي النفع أي: لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا!

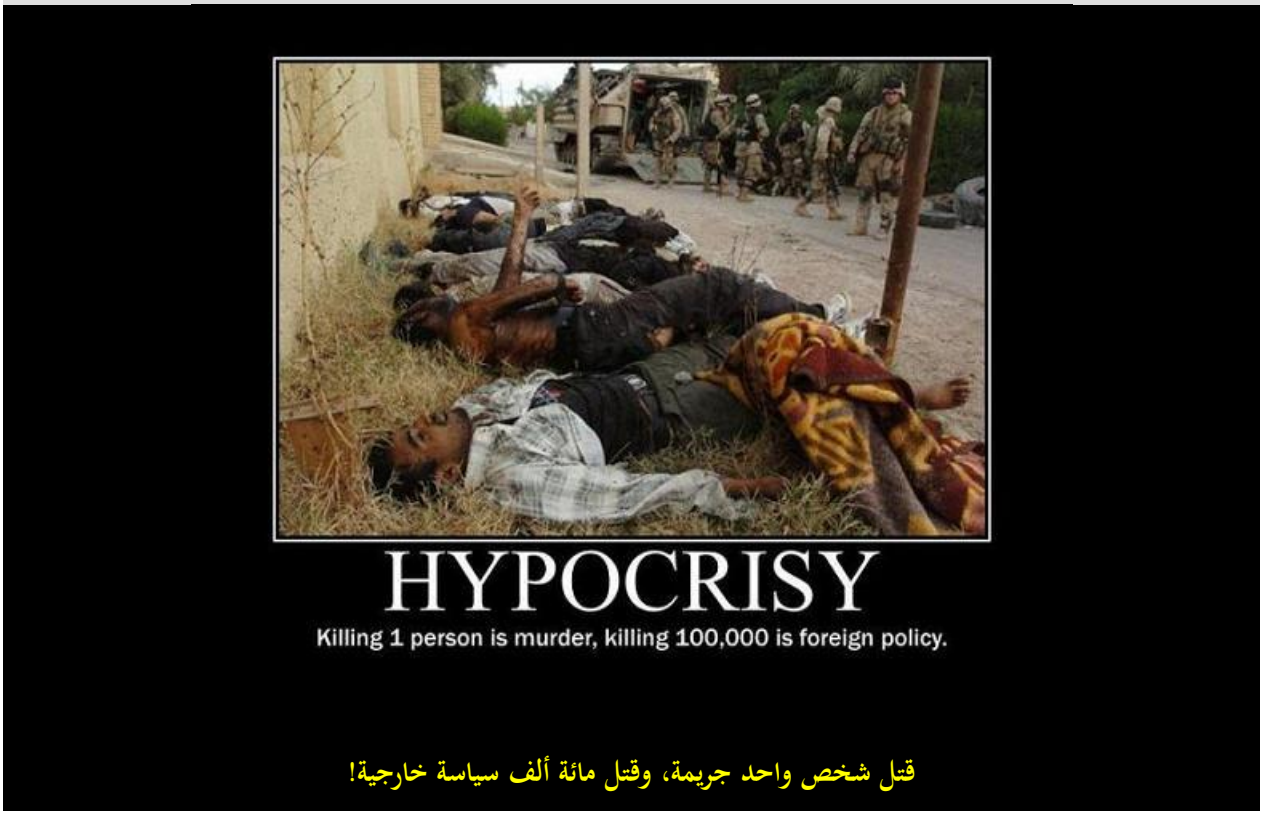

قتل شخص واحد جريمة، وقتل مائة ألف سياسة خارجية!

الحسرة على مصاحبة الأنذال:

ومن أصعب المواقف في القيامة: الحسرة على الصاحب النذل الدال على الباطل والكفران، كما قال ربنا تبارك وتعالى: العنكبوت–25: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا؛ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ، وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾!

قال في الظلال:

ويمضي في القصة بعد نجاة إبراهيم من النار؛ فلقد يئس من إيمان القوم الذين لم تلن قلوبهم للمعجزة الواضحة، فإذا هو يجبههم بحقيقة أمرهم، قبل أن يعتزلهم جميعًا: (وقال: إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا؛ مودة بينكم في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضًا، ومأواكم النار، وما لكم من ناصرين)!

إنه يقول لهم: إنكم اتخذتم الأوثان من دون الله، لا اعتقادًا واقتناعًا بأحقية هذه العبادة؛ إنما يجامل بعضكم بعضًا، ويوافق بعضكم بعضًا، على هذه العبادة، ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه – حين يظهر الحق له – استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق والعقيدة!

وإن هذا ليقع في الجماعات التي لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد، فيسترضي الصاحب صاحبه على حساب العقيدة، ويرى أمرها أهون من أن يخالف عليه صديقه! وهي الجد كل الجد: الجد الذي لا يقبل تهاونًا ولا استرخاء ولا استرضاء!

ثم يكشف لهم عن صفحتهم في الآخرة؛ فإذا المودة التي يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة، والتي يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليه، إذا هي يوم القيامة عداء ولعن وانفصام: (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضًا) يوم يتنكر التابعون للمتبوعين، ويكفر الأولياء بالأولياء، ويتهم كل فريق صاحبه أنه أضله، ويلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه! ثم لا يجدي ذلك الكفر والتلاعن شيئًا، ولا يدفع عن أحد عذابًا: (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين)! النار التي أرادوا أن يحرقوه بها، فنصره الله منها ونجاه. فأما هم فلا نصرة لهم ولا نجاة!

وأنذل الأنذال هو إبليس عليه اللعائن والوبال، حين يتبرأ من متبوعيه، ويعتذر لهم بأنهم هم الذين أطاعوه واتبعوا تزيينه، كما مر.

الحسرة على مجلس لا يذكر فيه الله تعالى

ومن مواقف حسرات الناس في القيامة: حسرتهم على ما فاتهم من الخير والذكر والأجر في الدنيا؛ ففي الجامع الصغير وغيره عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة) وذلك لما وجدوه من فضل الذاكرين،

وحلق الذكر، ومجالس الطاعة، والأجر العظيم لأصحابها، وهل يجب الذكر في مجلس لزومًا؟ قال الشيخ المنجد في موقعه:

تدل الأحاديث على استحباب إعمار المجالس بذكر الله تعالى، وقضاء الأوقات في النافع المفيد، كما تدل على التحذير من الوقوع فيما يؤدي إلى الندم يوم القيامة، لا نعني الندم بسبب الوقوع في المعاصي، بل الندم بسبب عدم الاستكثار من الخير الذي يرفع الدرجات، ويبلغ بالمؤمن أعلى المقامات (وأورد الأحاديث في ذلك المعنى) ثم قال (باختصار كثير مني):

....فقد استدل العلماء بهذه الأحاديث على كراهة أن تخلو المجالس من ذكر الله، وليس على تحريم ذلك، فالحسرة لا يلزم أن تكون بسبب ترك الواجبات، بل يمكن أن تقع بسبب ترك المستحبات التي ترفع إلى أعلى الدرجات، وقد جاء عن بعض السلف أنه قال: يعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره، فكل ساعة لم يذكر الله فيها تتقطع نفسه عليها حسرات. كما نقل ذلك الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم: وقوله في الحديث: (إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم) يدل بظاهره على وجوب الذكر في كل مجلس؛ لأن العذاب والمغفرة لا يكون إلا عن ذنب، إما بترك واجب، وإما بفعل محرم. قال ابن علان رحمه الله: (فإن شاء عذبهم) جزاء ما قصروا في ذلك بتركها (وإن شاء غفر لهم) ذلك النقص.

وهذا يقتضي وجوب وجود الذكر والصلاة على النبي في المجلس، لأنه رتب العذاب على ترك ذلك وهو آية الوجوب، ولم أر من ذكر عنه القول بوجوب ذلك في كل مجلس، والحديث يقتضيه! والذي حمل أهل العلم الحديث عليه هو كراهة إخلاء المجلس من ذكر الله تعالى.

قال الملا علي القاري رحمه الله: (إن شاء عذبهم) أي: بذنوبهم السابقة وتقصيراتهم اللاحقة! قال الطيبى: قوله فإن شاء عذبهم، من باب التشديد والتغليظ، ويحتمل أن يصدر من أهل المجلس ما يوجب العقوبة!

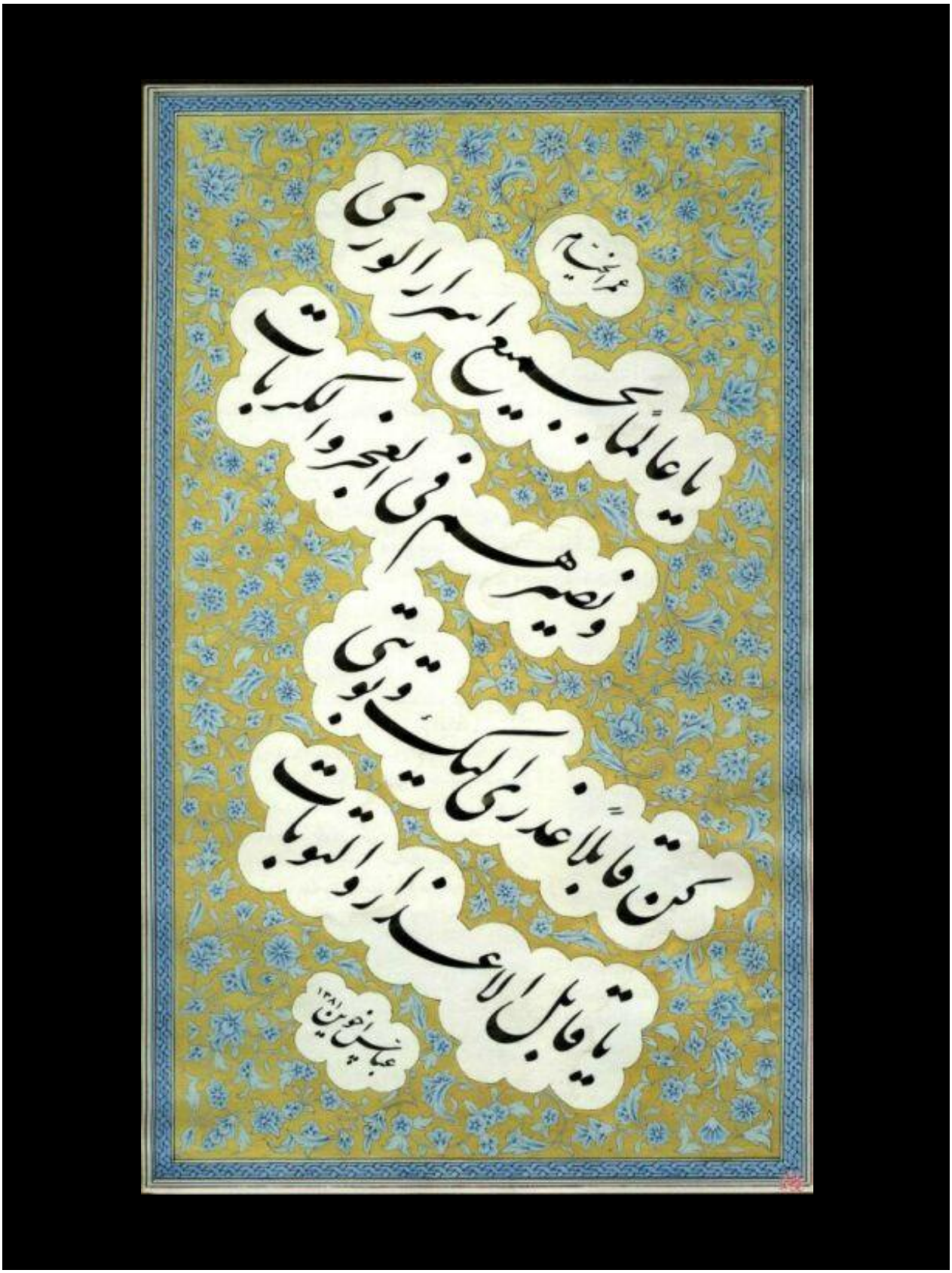

یا عالما بجمیع اسرار الوری
یا قابل الاعذار و التوبات
عباس اخوین ۱۳۸۱

الحسرة على عدم الازدياد من الصالحات

ومن مواقف الحسرات حسرات يشترك فيها الصالحون والطالحون؛ وندم على التفريط أو عدم التدارك؛ ففي الجامع الصغير عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (ما من أحد يموت إلا ندم، إن كان محسنًا ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم ألا يكون نزع)! قال في جامع العلوم والحكم: فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل ألا يقدر عليها، ويحال بينه وبينها: إما بمرض أو موت، أو بأن يدركه بعض هذه الآيات التي لا يقبل معها عمل!

قال أبو حازم: إن بضاعة الآخرة كاسدة يوشك أن تنفق، فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير. ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه، ويتمنى الرجوع إلى حالة يتمكن فيها من العمل، فلا تنفعه الأمنية، قال تعالى: (وأنيبوا إلى ربكم، وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب، ثم لا تنصرون* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة، وأنتم لا تشعرون* أن تقول نفس: ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله، وإن كنت لمن الساخرين* أو تقول: لو أن الله هداني لكنت من المتقين* أو تقول حين ترى العذاب: لو أن لي كرة، فأكون من المحسنين) الزمر:58 – 54 وقال تعالى: (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال: رب ارجعون* لعلي أعمل صالحًا فيما تركت، كلا؛ إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) المؤمنون: 99 – 100، وقال عز وجل: (وأنفقوا مما رزقناكم، من قبل أن يأتي أحدكم الموت، فيقول: رب لولا أخرتني إلى أجل قريب؛ فأصدق وأكن من الصالحين* ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) المنافقون: 10 – 11.

وفي الترمذي عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (ما من ميت يموت إلا ندم! قالوا: وما ندامته؟ قال: إن كان محسنًا، ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا، ندم ألا يكون

استعتب) فإذا كان الأمر على هذا فيتعين على المؤمن اغتنام ما بقي من عمره، ولهذا قيل: إن بقية عمر المؤمن لا قيمة له! (ولا أراه صوابًا، وينقضه ما يأتي بعده)!

وقال سعيد بن جبير: كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة، وقال بكر المزني : ما من يوم أخرجه الله إلى الدنيا إلا يقول: يابن آدم، اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي، ولا ليلة إلا تنادي: ابن آدم اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي، ولبعضهم:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع	فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح مات من غير سقم	ذهبت نفسه الصحيحة فلتة

وقال محمود الوراق :

مضى أمسك الماضي شهيدًا معدلا	وأعقبه يوم عليك جديد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة	فثن بإحسان.. وأنت حميد
فيومك إن أعقبته عاد نفعه عليك	وماضي الأمس ليس يعود
ولا ترج فعل الخير يومًا إلى غد	لعل غدًا يأتي وأنت فقيد

وهو رحمه الله القائل:

واخلجتي وصحائفي سودًا بدت	وصحائف الأبرار في إشراقِ
ومؤنبٍ لي في القيامة قائلٍ	أكذا تكون صحائف الوراقِ

حسرة من باع آخرته بدنيا غيره

وممن سيتحسرون يوم القيامة ويندمون من اشتروا الدنيا بالآخرة، لصالح آخرين، فغبنوا أنفسوا، وضلوا عن سواء السبيل؛ ففي البخاري في التاريخ عن أبي أمامة، وإسناده حسن، وفي جامع السيوطي – بسند صحيح – عن سيدي أبي أمامة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إن أشد الناس ندامة يوم القيامة رجل باع آخرته بدنيا غيره)!

وروى أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده قال عمر بن عبدالعزيز لجلسائه: أخبروني بأحمق الناس، قالوا: رجل باع آخرته بدنياه. فقال عمر: ألا أنبئكم بأحمق منه؟ قالوا بلى، قال رحمه الله ورضي عنه: رجل باع آخرته بدنيا غيره!

قال المناوي رحمه الله تعالى في فيض القدير:

(إن أشد الناس ندامة يوم القيامة رجل) ذكر الرجل وصف طردي والمراد مكلف (باع آخرته بدنيا غيره) أي استبدل بحظه الأخروي حصول حظ غيره الدنيوي وآثره عليه فأعظم بذلك من سفاهة وأصل الاشتراء بذل الثمن ليحصل ما يطلب من الأعيان، ثم استعير للأعراض عما في يده، محصلا به غيره، هبه من المعاني أو الأعيان ثم توسع فيه، فاستعمل للرغبة عن الشيء طمعا في غيره، ثم إن هذا البائع يسمونه أخس الأخساء قال:

أكلف نفسي كل يوم وليلة	**هموم هوى من لا أفوز بخيره**
كما سود القصار بالشمس وجهه	**حريصًا على تبييض أثواب غيره**

وفي مواهب الجليل شرح مختصر الشيخ خليل قال مالك رحمه الله تعالى لابن وهب:

أد ما سمعت، وحسبك،ولا تحمل لأحد على ظهرك؛ فإنه كان يقال: أخسر الناس من باع آخرته بدنياه، وأخسر منه من باع آخرته بدنيا غيره!

الحسرة على تولي ولاية أو مسؤولية كبيرة في الدنيا:

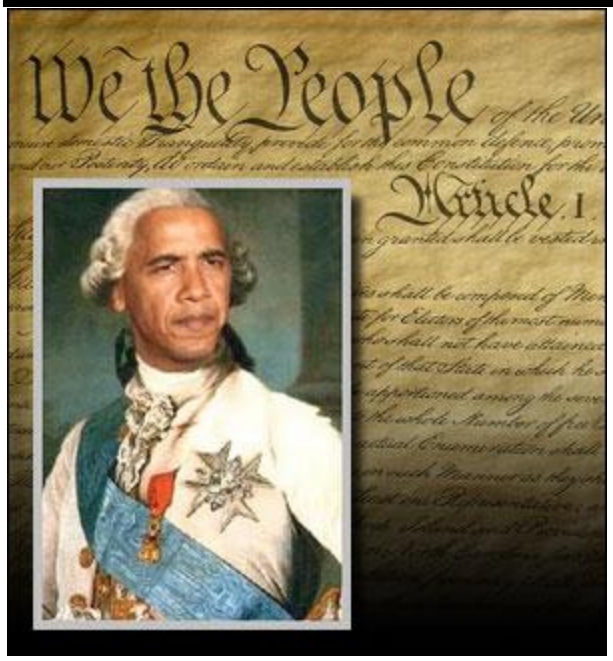

ومن مواقف الحسرة في الآخرة، تعرض الإنسان لولاية، أو مسؤولية كبيرة في الأمة، ما لم يكن لها أهلًا؛ لما لحقوق الناس من حرمة، ولما للمسؤولية من ثقل؛ ففي صحيح الترغيب عن سيدي أبي أمامة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (ما مِن رجلٍ يلي أمرَ عَشرةٍ – فما فوقَ ذلكَ – إلَّا أتى اللهَ مَغلولًا يومَ القيامةِ يَدُه إلى عُنقِه، فَكَّه بِرُّه، أو أوثَقَه إثمُهُ، أولُها مَلامةٌ، وأوسطُها ندامةٌ، وآخرُها خِزيٌ يومَ القيامةِ) نعوذ بالله من الملامة، والندامة، والخزي يوم القيامة!

وفي صحيح الجامع عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إنَّكم ستَحْرِصُونَ علَى الإمارَةِ، وإنَّها ستكونُ ندامَةً وحسرَةً يومَ القيامَةِ، فنِعْمَ الْمُرضِعَةُ، وبئستِ الفاطِمَةُ).

وقد نصح النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا ذر رضي الله تعالى عنه ألا يلي شيئًا؛ ففي صحيح الجامع عنه رضي الله تعالى عنه، أن سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، نبهه قائلًا: (يا أبا ذَرٍّ! إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يومَ القيامةِ خِزْيٌ وندامةٌ، إلا مَن أخذها بحقِّها، وأَدَّى الذي عليه فيها)!

قال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح:

(وستكون ندامة يوم القيامة) أي لمن لم يعمل فيها بما ينبغي، وزاد في رواية شبابة "وحسرة" ويوضح ذلك ما أخرجه البزار والطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك بلفظ: أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة؛ إلا من عدل!

قال النووي رحمه الله تعالى: هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية، ولا سيما لمن كان فيه ضعف. وهو في حق من دخل فيها بغير أهلية ولم يعدل؛ فإنه يندم على ما فرط منه إذا جوزي بالخزي يوم القيامة، وأما من كان أهلاً وعدل فيها فأجره عظيم كما تظاهرت به الأخبار، ولكن في الدخول فيها خطر عظيم، ولذلك امتنع الأكابر منها، والله أعلم.

الحسرة على عدم الاستعداد للسؤال والحساب والآخرة:

ومن مواقف الحسرة في الآخرة، يقين الإنسان بأنه لم يستعد للقاء الله تعالى والسؤال والحساب؛ فقد أخرج في صحيح الجامع عن سيدي ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، والإمام ابن خزيمة في التوحيد – وأشار في المقدمة أنه صح وثبت بالإسناد الثابت الصحيح – عن سيديّ أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن آخرَ رجلينِ يخرجانِ منَ النَّارِ فيقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لأحدِهما: (يا بنَ آدمَ: ما أعددتَ لهذا اليومِ؟ هل عملتَ خيرًا قطُّ؛ رجوتَني أو خشيتَني)؟ فيقولُ: لا يا ربِّ فيؤمرُ بهِ إلى النَّارِ، فَهوَ أشدُّ أَهلِ النَّارِ حسرةً!

فيقالُ للآخرِ: (يا بنَ آدمَ ماذا أعددتَ لهذا اليومِ؟ هل عملتَ خيرًا قطُّ)؟ فيقولُ: لا يا ربِّ؛ غيرَ أنِّي أرجوكَ!

فترفعُ لهُ شجرةٌ، فيقولُ، يا ربِّ أقررني تحتَ هذِه الشَّجرةِ، لأستظلَّ بظلِّها، وأشربَ من مائِها، وآكلَ من ثمرتِها! ويعاهِدُه ألا يسألَه غيرَها!

فيقرُّهُ الكريم تحتَها ويعاهِدُه ألا يسألَه غيرَها! وربه سبحانه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه! فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها!

ثم ترفع له شجرة أخرى هي أحسن من الأولى فيقول أي رب أدنني من هذه لأشرب من مائها، وأستظل بظلها لا أسألك غيرها!

فيقولُ تعالى: (يا بنَ آدمَ: ألم تعاهدني ألا تسألني غيرَها)؟

فيقولُ: بلى، ولَكن هذِه!

ثمَّ ترفعُ لهُ شجرةٌ عندَ بابِ الجنَّةِ وَهيَ أحسنُ منَ الأولتينِ، وأغدقُ ماءً، فيقولُ: يا ربِّ أدنِني من هذِه، ويعاهدُه ألا يسألَه غيرَ هذا!

فيدنيهِ سبحانه فيسمعُ أصواتَ أَهلِ الجنَّةِ، فلا يتمالَك فيقولُ: أي ربِّ أدخلني الجنَّةَ!

فيقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: سَل وتمنَّه، فيسألُ، ويتمنَّى مقدارَ ثلاثةِ أيَّامٍ منَ الدُّنيا، ويلقِّنُه ما لا علمَ لهُ بهِ، فيسألُ ويتمنَّى! فإذا فرغَ قال الملك سبحانه: لَك ما سألتَ، ومثلُه معَه!

حسرة الحريص على التأمر والتولي:

ومما سيتحسر عليه بعض الناس مما استصحبوه من الدنيا الحرص على المناصب، والسلطة:

ففي مسلم عن سيدي أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟

فضرب صلى الله عليه وسلم يده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)!

وفي صحيح الجامع عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه، وفي صحيح سنن ابن حبان عن سيدي سعد رضي الله عنه، مرفوعًا: (إنَّكم ستَحْرِصُونَ علَى الإمارَةِ، وإنَّها ستكونُ ندامَةً وحسرَةً يومَ القيامَةِ، فنِعْمَ الْمُرضِعَةُ، وبئستِ الفاطِمَةُ)!

وفي سراج الملوك للطرطوشي باختصار (ولم يعز): (ما من عبد استرعاه الله تعالى رعية فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة). في البخاري مرفوعًا عن سيدي معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه.

وروى عبد الرحمن بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها (وهو في الصحيحين). وروى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تجدون من خير الناس أشد الناس كراهة لهذا الأمر حتى يقع فيه.

وروي أن العباس قال: أمِّرني يا رسول الله فأصيب وأستريش. فقال له: يا عباس يا عم النبي، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، ألا أحدثكم عن الإمارة؟ أولها ملامة ، وأوسطها ندامة، وآخرها حسرة يوم القيامة (في حلية الأولياء، وابن أبي الدنيا معضلاً، والبيهقي من حديث جابر متصلا ومن رواية ابن المنكدر مرسلاً، ومعالم القربة وغيرها).

وروى أبو داود في السنن قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إن أبي عريف على الماء، وإنه يسألك أن تجعل لي العرافة من بعده. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: العرفاء في النار!

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليودن أقوام يوم القيامة لو وقعوا من الثريا ولم يكونوا أمراء على شيء، فكم من متخوض في مال الله ومال رسوله له النار غدً ا يوم القيامة). وهو في ابن عساكر والأدب المفرد، ونصفه الثاني في صحيح ابن حبان وغيره وفي السلسلة الصحيحة.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة: إمام ظالم غشوم وغالٍ في الدين مارق منه)! السنة لابن أبي عاصم والمعجم الكبير للطبراني.

حسرة الذي مات فجأة:

ومما سيتحسر عليه الأحياء والأموات جميعًا موت البغتة، حين لا يجد المكلف فرصة للتوبة أو قول لا إله إلا الله – اللهم أحينا عليها، وأمتنا عليها، وابعثنا عليها، وثقل به كفاتنا، وارفع بها درجاتنا – ففي الجامع الصغير عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، بسند حسن، ترفعه: (موتُ الفجأةِ راحةٌ للمؤمنِ، و أخذُه أسفٌ للفاجرِ).

وفيه أيضًا – بسند صححه الألباني – عن سيدي عبيد الله بن خالد رضي الله تعالى عنه، مرفوعًا: (موتُ الفَجْأَةِ أخْذَةُ أسَفٍ)!

الحسرة على ترك سورة البقرة:

ومما سيتحسر عليه السملمون يوم القيامة إهمال قراءة سورة البقرة، وتدبرها؛ ففي مسلم عن سيدي أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (اقْرَؤوا القرآنَ، فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابه. اقرَؤوا الزَّهرَاوَين: البقرةَ وسورةَ آلِ عمرانَ؛ فإنهما تأتِيان يومَ القيامةِ كأنهما غَمامتانِ، أو كأنهما غَيايتانِ، أو كأنهما فِرْقانِ من طيرٍ صوافَّ؛ تُحاجّان عن أصحابهما!

اقرَؤوا سورةَ البقرةِ؛ فإنَّ أَخْذَها بركةٌ، وتركَها حسرةٌ، ولا يستطيعُها البَطَلَةُ)!

قال الإمام القرطبي في مقدمة تفسير السورة عن فضلها (باختصار كثير):

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم. ويقال لها: فسطاط القرآن، قاله خالد بن معدان. وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها. وتعلمها عمر رضي الله عنه بفقهها وما تحتوي عليه في اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله في ثمان سنين كما تقدم.

قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثًا وهم ذوو عدد، وقدم عليهم أحدثهم سنًّا لحفظه سورة البقرة، وقال له: (اذهب فأنت أميرهم) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة وصححه.

وروي أيضًا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) رواه مسلم.

وروى الدارمي عن عبد الله رضي الله عنه قال: ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط. وقال: إن لكل شيء سنامًا وإن سنام القرآن سورة البقرة، وإن لكل شيء لبابًا وإن لباب القرآن المفصل. قال أبو محمد الدارمي. اللباب: الخالص.

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر: وكان لبيد بن ربيعة.... ابن صعصعة من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام فحسن إسلامه، وترك قول الشعر في الإسلام، سأله عمر في خلافته عن شعره

واستنشده، فقرأ سورة البقرة، فقال: إنما سألتك عن شعرك! فقال: ما كنت لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران، فأعجب عمر قوله، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة.

وقد قال كثير من أهل الأخبار: إن لبيدًا لم يقل شعرًا منذ أسلم. وقال بعضهم: لم يقل في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً

قال ابن عبد البر: وقد قيل إن هذا البيت لقردة بن نفاثة السلولي، وهو أصح عندي. وقال غيره: بل البيت الذي قال في الإسلام:

ما عاتب المرءَ الكريم كنفسه والمرء يصلحه القرين الصالح

الشيطان لعنه الله تعالى متحسرًا:

إبليس لعنه الله تعالى متحسرًا

وكما أن ابن آدم يتحسر في الدنيا لأسباب، وفي الآخرة لأسباب أخرى؛ فإن الرجيم عليه لعائن الله يتحسر، ويبكي، ويندب غباء نفسه، في مواقف شتى، سردتها السيرة المشرفة، ومنها:

حين يستعيذ المسلم بربه القيوم من شر الرجيم

ففي صحيح الترغيب وغيره، عن سيدي أسامة بن عمير الهذلي والد أبي المليح رضي الله عنهم، مرفوعًا: (لا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ؛ فإنَّهُ يَعْظُمُ حتى يَصِيرَ مِثْلَ البيتِ، ويقولُ: بِقُوَّتِي، ولكنْ قُلْ: بسمِ اللهِ، فإنَّهُ يَصْغُرُ حتى يَصِيرَ مِثْلَ الذبابِ.

حين يرفع المسلم صوته بالقرآن الكريم

عن علِيٍّ رضِيَ اللَّهُ عنهُ قالَ: كانَ أبو بكرٍ رضِيَ اللَّهُ عنهُ إذا قرأَ يخفِضُ صوتَهُ، وكان عُمرُ رضِيَ اللَّهُ عنهُ إذا قرأ يرفَعُ صوتَهُ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ لأبي بكرٍ: لِم تخفِضُ؟ قال: أُسمِعُ من أناجِي، وقالَ لِعُمَرَ: لِمَ تَجهرُ؟ قالَ: أُوقِظُ الوَسنَانَ، وَأكرِبُ الشَّيطانَ.....!

حين تقرأ في البيت سورة البقرة

ففي صحيح الترغيب وغيره، عن سيدي عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله تعالى عنهما قال: (اقرءوا سورةَ البقرةِ في بيوتِكم، فإنَّ الشَّيطانَ لا يدخلُ بيتًا يقرأُ فيه سورةُ البقرةِ)!

حين يسجد المسلم عند آية سجدة

ففي صحيح مسلم وغيره، عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار!

حين يعلم أن الرب تعالى كفى عبده ووقاه

ففي صحيح سنن أبي داود، وغيره، عن سيدي أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، مرفوعًا: (إذا خرج الرجلُ من بيتِهِ فقال: بِسْمِ اللهِ، توكلتُ على اللهِ، لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ. قال: يُقالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وكُفِيتَ ووُقِيتَ، فتَتَنَحَّى له الشياطينُ، فيقولُ شيطانٌ آخَرُ: كيف لك برجلٍ قد هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ)!؟

حين يتبع المسلم سنة أبي الأنبياء عليه السلام

ففي صحيح الترغيب عن سيدي عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، مرفوعًا: (لمَّا أَتَى إبراهيمُ خَلِيلُ اللهِ المَناسِكَ عرضَ لهُ الشَّيْطَانُ عندَ جَمْرَةِ العقبةَ، فَرَماهُ بِسبعِ حصياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ، ثُمَّ عرضَ لهُ عندَ الجمرةِ الثانيةِ، فَرَماهُ بِسبعِ حصياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ، ثُمَّ عرضَ لهُ عِنْدِ الجمرةِ الثالثةِ، فَرَماهُ بِسبعِ حصياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ. قال سيدي عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: الشيطانَ تَرْجُمُونِ، ومِلَّةَ أَبيكُمْ إبراهيمَ تَتَّبِعُونَ!

حين يكون قرين المسلم الذاكر

ففي مجمع الزوائد – بسند رجاله رجال الصحيح – عن سيدي عوف بن مالك بن نضلة أبي الأحوص، عن سيدي ابنِ مسعودٍ رضي الله عنهما، مرفوعًا: (قال إن شيطانَ المسلمِ يلقَى شيطانَ الكافرِ، فيُرَى شيطانُ المؤمنِ شاحبًا أغبرَ مهزولًا، فيقولُ له شيطانُ الكافرِ: ويحَك؛ مالَك هلكتَ!؟ فيقولُ شيطانُ المؤمنِ: لا واللهِ ما أصلُ معَه إلى شيءٍ: إذا طعِم ذكرَ اسمَ اللهِ، وإذا شرِب ذكرَ اسمَ اللهِ، وإذا دخل بيتَه ذكر اسمَ اللهِ! فيقولُ الآخرُ: لكنِّي آكلُ من طعامِه، وأشربُ من شرابِه، وأنامُ على فراشِه؛فهذا ساحٌّ، وهذا مهزولٌ!

يتحسر ويفر حين يسمع التأذين

ففي الصحيحين واللفظ لمسلم عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إذا نوديَ بالأذانِ أدبرَ الشَّيطانُ،لهُ ضراطٌ حتَّى لا يسمعَ الأذانَ! فإذا قضيَ الأذانُ أقبلَ، فإذا ثوِّبَ بها

أدبرَ، فإذا قضيَ التَّثويبُ أقبلَ يخطرُ بينَ المرءِ ونفسِهِ، يقولُ: اذكر كذا، اذكر كذا؛ لما لم يكن يذكرُ، حتَّى يظلَّ الرَّجلُ إن يدري كم صلَّى، فإذا لم يدرِ أحدُكم كم صلَّى فليسجد سجدتينِ، وهوَ جالسٌ. وفي روايةٍ: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ: إنَّ الشَّيطانَ إذا ثوِّبَ بالصَّلاةِ ولَّى ولهُ ضراطٌ. فذكرَ نحوهُ. وزادَ: فهنَّاهُ ومنَّاهُ. وذكَّرَهُ من حاجاتِهِ ما لم يكن يذكر)!

حين يرى أقوياء الإيمان كالفاروق رضي الله تعالى عنه

ففي البخاري عن سيدي سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه، قال: استأذن عُمَر بن الخطابِ على رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعِندَه نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صوته!

فلما استأذن عُمَر بن الخطابِ قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدخل عمر ورسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسولَ اللهِ! فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (عجبت من هؤلاء اللاتي كن عِندَي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب)!

فقال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسولَ اللهِ، ثم قال: يا عدوات أنفسهن: أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ فقُلْن: نعم أنت أفظ وأغلظ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم!

فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (إيها يا بن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قط إلا سلك فجًّا غير فجك)!

حينما يرغمه المسلم بسجدتي السهو

ففي صحيح ابن ماجه وغيره عن سيدي أبي سعيد رضي الله تعالى عنه، مرفوعًا: (إذا شكَّ أحدُكم في صلاتِهِ فليُلقِ الشَّكَّ، وليَبنِ على اليقينِ؛ فإذا استيقنَ التَّمامَ سجدَ سجدتينِ، فإن كانت صلاتهُ تامَّةً كانتِ الرَّكعةُ نافِلةً، وإن كانت ناقِصةً كانتِ الرَّكعةُ تمامًا لصلاتِهِ، وكانتِ السَّجدتانِ مُرغِمتَيِ الشَّيطانِ)!

حين علم برحمة الرحمن الرحيم لعباده يوم عرفة

لما روى سيدي مالك رحمه الله في الموطأ – وغيره – عن سيدي طلحة بن عبيد الله بن كريز، مرسلاً: ما رئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر، ولا أحق، ولا أدحر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذلك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رأى يوم بدر!

قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ فقال: أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة هكذا!

حين علم بمغفرة الغفور المنان لعباده في المزدلفة

فقد روى الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في القول المسدد، بسند قوي عن سيدي عباس ابن مرداس السلمي رضي الله تعالى عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم دعا ربَّه تبارك وتعالى عَشِيَّةَ عرفةَ بالمغفرةِ لأُمَّتِه، وأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أجابه بالمغفرةِ لأُمَّتِه – إلا ظُلْمَ بعضِهم بعضًا؛ فإنه يأخذُ للمظلومِ من الظالمِ!

قال: فأعاد الدعاءَ، فقال: (أَيْ ربِّ! إنك قادرٌ على أن تُثِيبَ المظلومَ خيرًا من مَظْلَمَتِه، وتَغْفِرَ لهذا الظالمَ)!

قال: فلم يُجِبْه تلك العَشِيَّةَ شيئًا، فلما أصبح بالمزدلفةِ أعاد الدعاءَ. فأجابه اللهُ عز وجل: (إني قد فعلتُ)!

فضَحِك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو تَبَسَّم، فقال أبو بكرٍ وعمرُ: واللهِ! لقد ضَحِكْتَ في ساعةٍ ما كنتَ تضحكُ فيها، فما أَضْحَكَكَ؟ أَضْحَكَ اللهُ سِنَّك!

فقال صلى اللهُ عليه وسلم: (ضَحِكْتُ أنَّ الخبيثَ إبليسَ حين عَلِمَ أن اللهَ عز وجل قد غفر لأُمَّتي، واستجاب دعائي، أَهْوَى يَحْثِي الترابَ على رأسِه، ويدعو بالوَيْلِ والثُّبُورِ، فضَحِكْتُ من الخبيثِ من جَزَعِهِ)!

حسرات المؤمنين:

حسرات المؤمنين

وكما أن الكفار يتحسرون على ما فاتهم، وما هم فيهم، وما ينتظرهم من سخط الله تعالى، وعقوبته، وآيات أخذه الأليم الشديد، وكما أن إبليس عليه لعائن الله يتحسر، فإن من المؤمنين من سيتحسرون، ويتألمون، وينفعلون، في الدنيا لأسباب شتى، وفي الآخرة؛ رغم علمهم بأنهم ناجون، سالمون، معافوْن!

وقد وردت مواقف عدة تتحدث عن حسرة بعض المؤمنين، وندمهم، وألمهم؛ فعلام يتحسر المؤمن ويتأثر، في الدنيا والآخرة.. وإليكها، ابتداءً بحسرات المرسلين والأنبياء عليهم السلام:

حسرة سيدنا موسى عليه السلام

وقد غضب سيدنا موسى عليه السلام وأسف وتحسر من مواقف قومه غلاظ الرقبة غير مرة، وسجل ذلك القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال: بئسما خلفتموني من بعدي، أعجلتم أمر ربكم؟) الأعراف:150، وقوله تعالى: (....فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا....) طه:86 قال العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى في الأضواء:

(فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا....) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه بعد مجيئه للميقات، في حال كونه في ذلك الرجوع غضبان أسفًا على قومه؛ من أجل عبادتهم العجل!

وقوله (أسفًا) أي: شديد الغضب؛ فالأسف هنا: شدة الغضب، وعلى هذا فقوله غضبان أسفًا أي غضبان شديد الغضب. ومن إطلاق الأسف على الغضب في القرآن قوله تعالى في الزخرف: 55: (فلما آسفونا انتقمنا منهم؛ فأغرقناهم أجمعين) أي: فلما أغضبونا بتماديهم في الكفر مع توالي الآيات عليهم انتقمنا منهم.

وقال بعض العلماء: الأسف هنا الحزن، والجزع. أي: رجع موسى في حال كونه غضبان حزينًا جزعًا لكفر قومه بعبادتهم للعجل. وقيل: أسفًا أي: مغتاظًا. وقائل هذا يقول: الفرق بين الغضب، والغيظ: أن الله وصف نفسه بالغضب، ولم يجز وصفه بالغيظ – حكاه الفخر الرازي – ولا يخفى عدم اتجاهه في تفسير هذه الآية؛ لأنه راجع إلى القول الأول، ولا حاجة في ذلك إلى التفصيل المذكور!

وقد بين تعالى أن من آثار غضب موسى إلقاءه الألواح التي فيها التوراة، وأخذه برأس أخيه يجره إليه، كما قال في الأعراف: 150: (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) وقال في طه:94، مشيرًا لأخذه برأس أخيه: (قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي). وهذه الآيات فيها الدلالة على أن الخبر ليس كالعيان؛ وهذا خبر من الله يقين لا شك فيه، ولما عاين قومه حول العجل يعبدونه أثرت فيه معاينة ذلك أثرًا لم يؤثره فيه الخبر اليقين بذلك، فألقى الألواح حتى تكسرت، وأخذ برأس أخيه يجره إليه؛ لما أصابه من شدة الغضب من انتهاك حرمات الله تعالى.

وقال ابن كثير في تفسيره لآية الأعراف السابقة:... عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله موسى؛ ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح)! ولا يخفى ما في هذا الغضب الشديد، والحزن الجامح من الحسرة والأسف على عناد هؤلاء الجفاة غلاظ الأكباد، وإهلاكهم أنفسهم، وسواد المصير الذي ينتظرهم وأمثالهم، وما هي من الظالمين ببعيد!

أسى سيدنا صالح عليه السلام

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ ٧٩

وقد تحسر نبي الله صالح عليه السلام على قومه الهلكى، الذين لا يحبون الناصحين، ويجترئون على آيات الله تعالى: (فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، ولكن لا تحبون الناصحين) الأعراف:97.

قال في المنار، حاكيًا عن سيدنا صالح عليه السلام؛ حين حكى عادة العرب فيما يقوله المتحسر على من مات جانيًا على حياته بالسكر ونحوه، المعزي لنفسه بأنه لم يقصر في دفع الضر عنه، والمتحزن لعدم قبوله ما بذل من النصح له: ألم أنهك عن هذه المسكرات؟ ألم أحذرك عاقبة هذه المخدرات؟ فماذا أفعل إذا كنت تفضل لذة الساعات والأيام على هناء المعيشة المعتدلة في عشرات الأعوام؟ ونحو هذا مما يقال في أحوال الحزن المختلفة خطابًا للموتى بحسب أحوالهم، بل عهد منهم مخاطبة الديار، والطلول والآثار.

ومثله ما ورد من نداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبعض قتلى المشركين ببدر بعد دفنهم في القليب: (يا فلان ابن فلان! وفلان ابن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؛ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا؛ فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟

قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم قوله صلى الله عليه وسلم توبيخًا وتصغيرًا ونقمة حسرة وندمًا اهـ.

حسرة سيدنا يعقوب عليه السلام

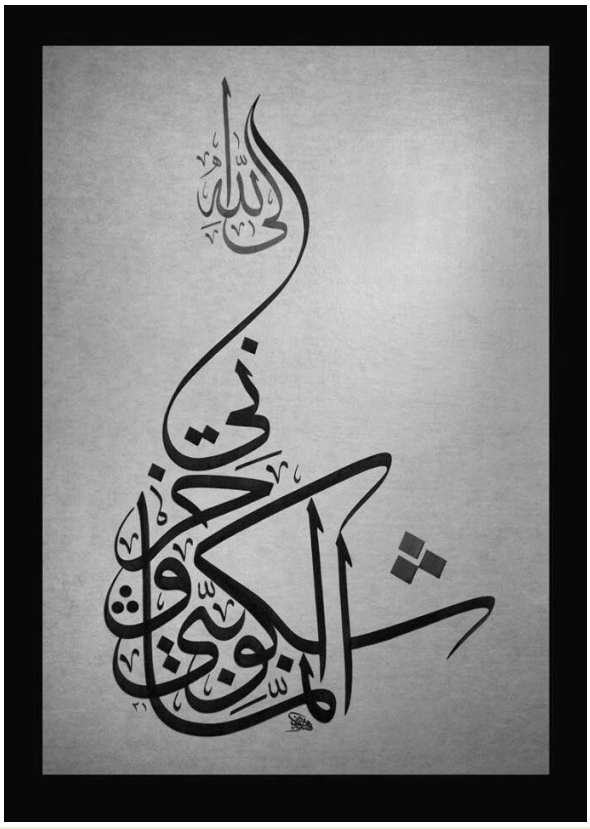

وممن تحسر طويلًا وبكي، واستبد به الحزن، حتى حكى القرآن شدة وجعه النفسي: سيدنا يعقوب عليه السلام بعد غياب يوسف عليه السلام ؛ فقد تأثر أول الأمر لمجرد فراقه، لحبه الشديد إياه؛ (قال إني ليحزنني أن تذهبوا به) يوسف عليه السلام:13! ثم تحسر وبكى حتى ابيضت عيناه من الحزن؛ أسىً وأسفًا: (وتولى عنهم وقال: يا أسفى على يوسف....) يوسف:84.قال السيد في الظلال:

... هي صورة مؤثرة للوالد المفجوع، يحس أنه منفرد بهمه، وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل، يندب فجيعته في ولده الحبيب يوسف الذي لم ينسه، ولم تهوّن من مصيبته السنون، والذي تذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل: (يا أسفا على يوسف)!

قال الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى:

(وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف، وابيضت عيناه من الحزن؛ فهو كظيم* قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضًا، أو تكون من الهالكين* قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) يوسف:84-87، انتقال إلى حكاية حال يعقوب عليه السلام في انفراده عن أبنائه ومناجاته نفسه، فالتولي حاصل عقب المحاورة. وتولى: انصرف، وهو انصراف غضب!

ولما كان التولي يقتضي الاختلاء بنفسه ذكر من أحواله تجدد أسفه على يوسف عليه السلام فقال: (يا أسفى على يوسف) والأسف: أشد الحزن، ونداء الأسف مجاز؛ نزل الأسف منزلة من يعقل فيقول له: احضر فهذا أوان حضورك، وأضاف الأسف إلى ضمير نفسه؛ لأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف! وإنما ذكر القرآن تحسره على يوسف عليه السلام ولم يذكر تحسره على ابنيه الآخرين؛ لأن ذلك التحسر هو الذي يتعلق بهذه القصة، فلا يقتضي ذكره أن يعقوب عليه السلام لم يتحسر قط إلا على يوسف، مع أن الواو لا تفيد ترتيب الجمل المعطوفة بها!

وكذلك عطف جملة (وابيضت عيناه من الحزن) إذ لم يكن ابيضاض عينيه إلا في مدة طويلة؛ فكل من التولي والتحسر وابيضاض العينين من أحواله؛ إلا أنها مختلفة الأزمان!

وابيضاض العينين: ضعف البصر، وظاهرة أنه تبدل لون سوادهما من الهزال؛ ولذلك عبر بـ (ابيضت عيناه) دون عميت عيناه! و(من) في قوله: (من الحزن) سببية، والحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين! وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار كما قال الحارث بن حلزة:

قبل ما اليوم بيَّضَت بعيون النـ ـاس فيها تغيظٌ وإباءً

وأن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر؛ فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار. على أن البكاء من الحزن أمر جبلي فلا يستغرب صدوره من نبي، أو أن التصبر عند المصائب لم يكن من سنة الشريعة الإسرائيلية؛ بل كان من سننهم إظهار الحزن والجزع عند المصائب. وقد حكت التوراة بكاء بني إسرائيل على موسى عليه السلام أربعين يومًا، وحكت تمزيق بعض الأنبياء ثيابهم من الجزع؛ وإنما التصبر في المصيبة كمال بلغت إليه الشريعة الإسلامية!

حسرة محمد صلى الله عليه وسلم وحزنه

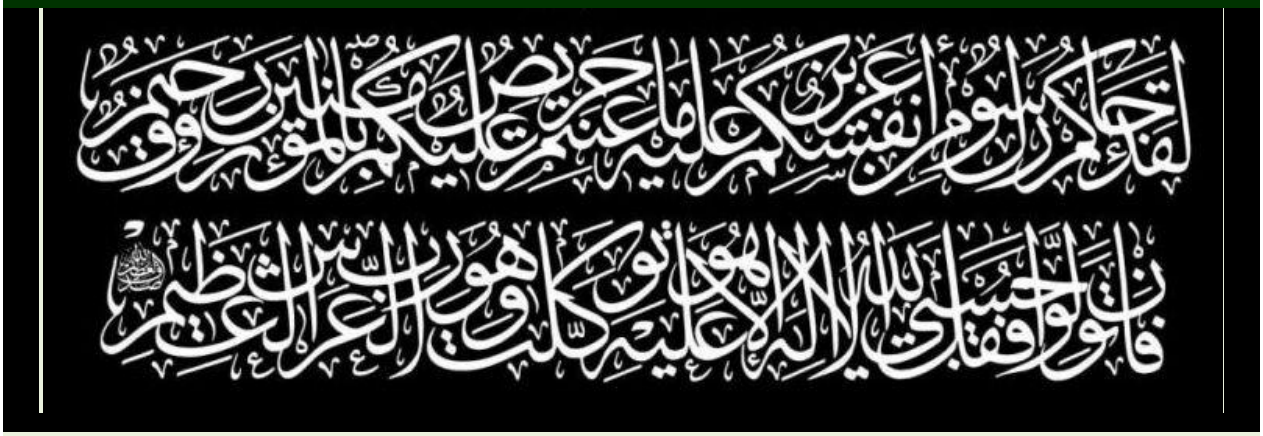

وممن تحسروا، وتألموا، وعانوا، وحملوا الألم الشديد، سيدي الرؤوف الرحيم، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا – ليس على دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، أو مطمع تهفو له نفوس طلاب الدنيا – بل على العباد، مسلمهم وكافرهم؛ حرصًا عليهم، ورأفة بهم، ورجاء هدايتهم. وقد ورد ذلك في مواقف كثيرة نورد بعضها هنا:

حسرته وحزنه صلى الله عليه وسلم من المفتريات على الإسلام ورسوله

وكما كانت أفعالهم تؤذيه صلى الله عليه وسلم، وتسبب له الحزن والضَّيق والحسرة، كانت أقوالهم كذلك تَحزنه، وتغمه، فكان ربه الرحمن الرحيم، يواسيه، ويخفف عنه صلى الله عليه وسلم ما هو فيه: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون؛ فإنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) الأنعام:33

يقول الإمام الحافظ ابن كثير عليه رحمات الله:

يقول تعالى مسليًّا لنبيه صلى الله عليه وسلم، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون) أي: قد أحطنا علما بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فاطر:8، كما قال تعالى في الآية الأخرى: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) الشعراء:3، (فلعلك باخع نفسك على آثارهم؛ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا) الكهف:7. وقوله: (فإنهم لا يكذبونك؛ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أي: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم، كما قال سفيان الثوري ....عن علي رضي الله عنه قال: قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله: (فإنهم لا يكذبونك؛ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)!

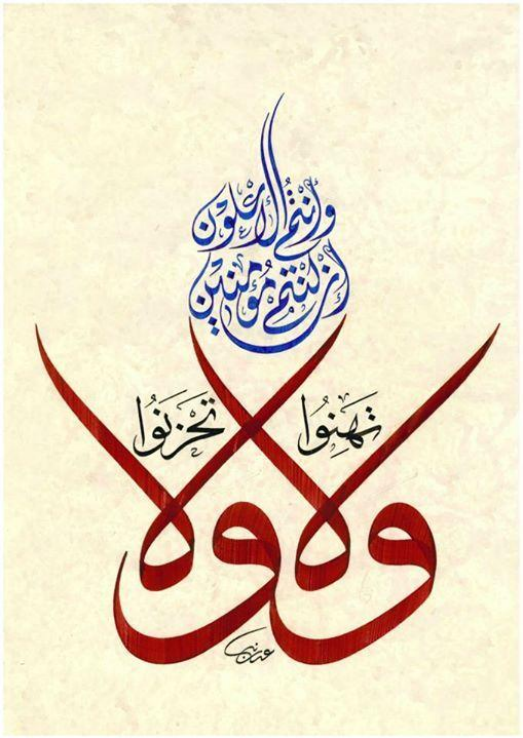

وذكر محمد بن إسحق، عن الزهري، في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شريق، ولا يشعر واحد منهم بالآخر. فاستمعوها إلى الصباح، فلما هجم الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألا يعودوا؛ لما يخافون من علم شباب قريش

بهم، لئلا يفتتنوا بمجيئهم!

فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم؛ ظنًّا أن صاحبيه لا يجيئان، لما تقدم من العهود، فلما أجمعوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضًا، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا! فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه! وهناك تأويلات أخرى أضرب صفحًا عن إيرادها لشبهها بما مضى.

الحسرة على الهزيمة

ومما يدخل في هذا الباب: الحزن على هزيمة تلحق بالمسلمين عسكريًّا أو حضاريًّا، كما حزن المسلمون بعد انكسارهم في أحد، واغتموا؛ بعد أن هرب بعضهم، وترك أرض المعركة، والرسول صلى الله عليه وسلم يناديهم ليعودوا: (إذ تصعدون، ولا تلوون على أحد، والرسول يدعوكم في أخراكم، فأثابكم غمًّا بغم؛ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم، ولا ما أصابكم، والله خبير بما تعملون) آل عمران:153.

قال ابن القيم رحمه الله تبارك وتعالى في زاد المعاد:

.....ذكرهم بحالهم وقت الفرار (مصعدين) أي جادين في الهرب والذهاب في الأرض، أو صاعدين في الجبل، لا يلوون على أحد؛ من نبيهم صلى الله عليه وسلم، ولا أصحابهم، والرسول يدعوهم في أخراهم: (إلي عباد الله، أنا رسول الله) فأثابهم بهذا الهرب والفرار غمًّا بعد غم: غم الهزيمة والكسرة، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد قتل!

وقيل جازاكم غما بما غممتم رسوله صلى الله عليه وسلم بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوه؛ فالغم الذي حصل لكم جزاء على الغم الذي أوقعتموه بنبيه صلى الله عليه وسلم.

والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله تعالى: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم) تنبيه على حكمة هذا الغم من بعد الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر!

الثاني: أنه مطابق للواقع؛ فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة، ثم أعقبه غم الهزيمة، ثم غم الجراح التي أصابتهم، ثم غم القتل، ثم غم سماعهم أن رسول الله قد قتل، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم. وليس المراد غمين اثنين خاصة، بل غمًّا متتابعًا؛ لتمام الابتلاء والامتحان!

الثالث: أن قوله تعالى: (بغم) من تمام الثواب؛ لا أنه سبب جزاء الثواب. والمعنى أثابكم غمًّا متصلاً بغم جزاء على ما وقع منهم من الهروب، وإسلامهم نبيهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه وترك استجابتهم له – وهو يدعوهم – ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر، وفشلهم.

وكل واحد من هذه الأمور يوجب غمًّا يخصه، فترادفت عليهم الغموم، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها، ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمرًا آخر!

الحسرة صلى الله عليه وسلم مما يعلم من هول الآخرة:

ومن أعظم ما كان يهوله صلى الله عليه ويسلم ويَحزنه: ما يعلم من هول الآخرة بعد أن رأى النار وما فيها، وبعد ما أعلمه الله تعالى، فقد خرج ابن حجر في مشكاة المصابيح عن سيدي أبي ذر رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إنِّي أرى ما لا ترونَ، وأسمعُ ما لا تسمعونَ: أطَّتِ السَّماءُ؛ وحُقَّ لَها أن تئطَّ، والَّذي نفسي بيدِه ما فيها موضعُ أربعةِ أصابعَ إلَّا ملَكٌ واضعٌ جبهتَهُ ساجدًا للَّهِ!

واللَّهِ لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحِكتُم قليلًا، ولبَكيتُم كثيرًا، وما تلذَّذتُم بالنِّساءِ على الفرشاتِ، ولخرجتُم إلى الصُّعُداتِ، تجأرونَ إلى اللَّهِ!

حسرته صلى الله عليه وسلم على حال الأمة

في البخاري عن سيدتي أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها: استيقظ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من النوم محمرًّا وجهُه يقول: (لا إله إلا اللهُ، ويلٌ للعربِ من شرٍّ قد اقترب، فتح اليومَ من ردمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه). وعقد سفيان تسعينَ أو مائةً، قيل: أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم، إذا كثُر الخبثُ).

قال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح: خص العرب بذلك؛ لأنهم كانوا حينئذٍ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من مقتل عثمان، ثم توالت الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة، كما وقع في الحديث الآخر: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة على قصعتها) أن المخاطب بذلك العرب.

قال ابن بطال:... وقد جاء في حديث أبي هريرة رفعه (ويل للعرب من شر قد اقترب): موتوا إن استطعتم! قال: وهذا غاية في التحذير من الفتن والخوض فيها؛ حيث جعل الموت خيرًا من مباشرتها، وأخبر في حديث أسامة رضي الله تعالى عنه بوقوع الفتن خلال البيوت؛ ليتأهبوا لها، فلا يخوضوا فيها، ويسألوا الله الصبر، والنجاة من شرها!

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ويحتمل أن يكون المراد بالشر ما أشار إليه في حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها: (ماذا أنزل الليلة من الفتن، وماذا أنزل من الخزائن)! فأشار بذلك إلى الفتوح التي فتحت بعده صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فكثرت الأموال في أيديهم، فوقع التنافس الذي جر الفتن، وكذلك التنافس على الإمرة، حتى أفضى ذلك إلى قتل عثمان رضي الله تعالى عنه، وترتب على قتله من القتال بين المسلمين ما اشتهر واستمر.

حسرته صلى الله عليه وسلم على ضعف الإسلام وما يتعرض له

ومما يتحسر عليه الصالحون: الإسلام، وما يتعرض له، والمسلمون وما يقاسون، لذا يطلب الرب الرحمن الرحيم من عباده ألا يكسرهم الحزن، أو تقعدهم الحسرة، أو يفت في نفوسهم الانكسار؛ فإنهم – رغم كلب الأعداء، وضعف المنة – الأعلْون، الأكرمون عند ربهم سبحانه وتعالى، قال تبارك وتعالى: (ولا تهنوا وتحزنوا وأنت الأعلون؛ إن كنتم مؤمنين) آل عمران:**139**.

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله تعالى في المنار:

الوهن: الضعف في العمل وفي الأمر، وكذا في الرأي. والحزن: ألم يعرض للنفس إذا فقدت ما تحب؛ أي: لا تضعفوا عن القتال وما يلزمه من التدبير؛ بما أصابكم من الجرح والفشل في أحد ولا تحزنوا على من قتل منكم في ذلك اليوم!

ويصح أن يكون هذا النهي إنشاء بمعنى الخبر، أي: إن ما أصابكم من القرح في أحد ليس مما ينبغي أن يكون موهنًا لأمركم ومضعفًا لكم في عملكم، ولا موجبًا لحزنكم وانكسار قلوبكم؛ فإنه لم يكن نصرًا تامًّا للمشركين عليكم، وإنما هو تربية لكم على ما وقع منكم من مخالفة قائدكم – صلى الله عليه وسلم – في تدبيره الحربي المحكم، وفشلكم وتنازعكم في الأمر، وذلك خروج عن سنة الله في أسباب الظفر، وبهذه التربية تكونون أحقاء بألا تعودوا إلى مثل تلك الذنوب، فتكون التربية خيرًا لكم من عدمها؛ بل يجب أن تزيدكم المصائب قوة وثباتًا؛ بما تربيكم على اتباع سنن الله في الحزم، والبصيرة، وإحكام العزيمة، واستيفاء الأسباب في القتال وغيره،

وأن تعلموا أن الذين قتلوا منكم شهداء وذلك ما كنتم تتمنونه، فتذكره مما يذهب بالحزن من نفس المؤمن!

وكيف تهنون وتحزنون وأنتم الأعلون بمقتضى سنن الله تعالى في جعل العاقبة للمتقين الذين يتقون الحيَدان عن سننه، وفي نصر من ينصره، ويتبع سننه؛ بإحقاق الحق، وإقامة العدل.

والمؤمنون أجدر بذلك من الكافرين الذين يقاتلون لمحض البغي والانتقام، أو الطمع فيما في أيدي الناس، فهمة الكافرين تكون على قدر ما يرمون إليه من الغرض الخسيس، وما يطلبونه من الغرض القريب، فهي لا تكون كهمة المؤمن الذي غرضه إقامة الحق والعدل في الدنيا، والسعادة الباقية في الآخرة، أي إن كنتم مؤمنين بصدق وعد الله بنصر من ينصره، وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسننه في نظام الاجتماع بحيث صار هذا الإيمان وصفًا ثابتًا لكم حاكمًا في ضمائركم وأعمالكم، فأنتم الأعلون؛ وإن أصابكم ما أصابكم. وإذا كان الأمر كذلك فلا تهنوا ولا تحزنوا فإن ما أصابكم يعدكم للتقوى، فتستحقون تلك العاقبة وهي علو السيادة عليهم.

وقال الأستاذ الإمام ما معناه: إن الحزن إنما يكون على ما فات الإنسان وخسره مما يحبه، وسببه أنه يشعر أنه قد فاته بفوته شيء من قوته، وفقد بفقده شيئًا من عزيمته أو أعضائه، ذلك بأن صلة الإنسان بمحبوباته من المال والمتاع والناس كالأصدقاء وذي القربى تكسبه قوة، وتعطيه غبطة وسرورًا، فإذا هو فقد شيئًا منها بلا عوض فإنه يعرض لنفسه ألم الحزن الذي يشبه الظلمة، ويسمونه كدرًا كأن النفس كانت صافية رائقة فجاء ذلك الانفعال فكدرها بما أزال من صفوها.

حزنه صلى الله عليه وسلم على كفر الكافرين

نعم.. ولا تندهش أيها القارئ الكريم، فكم تحسر محمد صلى الله عليه وسلم، الرؤوف الرحيم، وكم استبد به الحزن على بلغ مداه على أحوال الكافرين، شفقة عليهم، ورغبة في إسلامهم، وضنًّا بهم على النار – بأبي هو وأمي، ونفسي، وأهلي أجمعين – والذي أخبرنا بذلك هو ربنا الله تيارك وتعالى (ومن أصدق من الله حديثًا) ومن مواقف حزنه صلى الله عليه وسلم حزنه على كفر الكافرين، وإعراضهم عن رب العالمين؛ لما يعلمه مما ينتظرهم في الآخرة:

يقول ربنا عز وجل، مخففًا عنه صلى الله عليه وسلم، آمرًا إياه أن يرفق بنفسه: (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فاطر:8/

ويقول عز من قائل: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم – إن لم يؤمنوا بهذا الحديث – أسفًا) الكهف:6/ ويقول عز من قائل: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين)! الشعراء:3.

قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

يقول تعالى مسليًا رسوله صلى الله عليه وسلم في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فاطر: 8؛

باخع: أي مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم؛ (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعني القرآن (أسفًا) يقول: لا تهلك نفسك أسفًا.

قال قتادة: قاتل نفسك غضبًا، وحزنًا عليهم. وقال مجاهد: جزعًا.

والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم؛ بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)!

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا؛ فإن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ إن الله عليم بما يصنعون)!

...الله جل وعز نهى نبيه عن شدة الاغتمام بهم، والحزن عليهم، كما قال جل وعز: (فلعلك باخع نفسك) قال أهل التفسير: قاتلٌ. قال نصر بن علي: سألت الأصمعي عن قول النبي صلى الله عليه وسلم في أهل اليمن: (هم أرق قلوبًا، وأبخع طاعة) ما معنى أبخع؟ فقال: أنصح.

فقلت له: إن أهل التفسير – مجاهدًا وغيره – يقولون في قول الله عز وجل: (لعلك باخع نفسك) معناه: قاتل نفسك. فقال: هو من ذاك بعينه، كأنه من شدة النصح لهم قاتل نفسه.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، مجازه: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وقيل: الجواب محذوف المعنى: أفمن زين له سوء عمله كمن هدي، ويكون يدل على هذا المحذوف (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء!

وفي (أفمن زين له سوء عمله) أربعة أقوال: أحدها: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله أبو قلابة، ويكون (سوء عمله) معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام.

الثاني: أنهم الخوارج؛ رواه عمر بن القاسم، فيكون (سوء عمله) تحريف التأويل.

الثالث: الشيطان، قاله الحسن، ويكون (سوء عمله) الإغواء.

الرابع: كفار قريش، قاله الكلبي، ويكون (سوء عمله) الشرك. وقال: إنها نزلت في العاص ابن وائل السهمي والأسود بن المطلب! وقال غيره: نزلت في أبي جهل بن هشام.

(فرآه حسنًا) أي صوابًا؛ قاله الكلبي، وقال: جميلًا.

قلت: والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال؛ لقوله تعالى: (ليس عليك هداهم) وقوله: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) وقوله سبحانه: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا) وقوله عز من قائل: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وقوله تبارك وتعالى في هذه الآية: (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ إن الله عليم بما يصنعون) وهذا ظاهر بين، أي: لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم، فإن الله أضلهم.

وقال الشيخ سيد قطب رحمه الله تعالى:

وفي التعبير ما يشبه العتب على شدة ضيقه صلى الله عليه وسلم، وهمه بعدم إيمانهم: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وبخع النفس قتلها!

وهذا يصور مدى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاني من تكذيبهم، وهو يوقن بما ينتظرهم بعد التكذيب، فتذوب نفسه عليهم – وهم أهله وعشيرته وقومه – ويضيق صدره؛ فربه يرأف به، وينهنهه عن هذا الهم القاتل، ويهون عليه الأمر، ويقول له: إن إيمانهم ليس مما كلفت؛ ولو شئنا أن نكرههم عليه لأكرهناهم، ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالًا، ولا انصرافا عن الإيمان!

وفي آية فاطر يقول تعالى: (فإن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات): وكأنما يقول: إن مثل هذا قد كتب الله عليه الضلالة؛ مستحقًّا لها بما زين له الشيطان من سوء عمله! وبما فتح عليه هذا الباب الذي لا يعود منه ضال؛ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، بما تقتضيه طبيعة الضلال في ذلك، وطبيعة الهدى في هذا: طبيعة الضلال برؤية العمل حسنًا وهو سوء.. وطبيعة الهدى بالتفتيش والحذر والمحاسبة والتقوى؛ وهو مفرق الطريق الحاسم بين الهدى والضلال!

وما دام الأمر كذلك (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)؛ إن هذا الشأن – شأن الهدى والضلال – ليس من أمر بشر. ولو كان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إنما هو من أمر الله

تعالى، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، وهو مقلب القلوب والأبصار!

والله سبحانه يعزي رسوله صلى الله عليه وسلم، ويسليه بتقرير هذه الحقيقة له؛ حتى يستقر قلبه الكبير الرحيم المشفق على قومه مما يراه من ضلالهم، ومصيرهم المحتوم بعد هذا الضلال!

وحتى يدع ما يجيش في قلبه البشري من حرص على هداهم, ومن رؤية الحق الذي جاء به معروفًا بينهم! وهو حرص بشري معروف، يرفق الله سبحانه برسوله من وقعه في حسه, فيبين له أن هذا ليس من أمره؛ إنما هو من أمر الله!

وهي حالة يعانيها الدعاة كلما أخلصوا في دعوتهم, وأدركوا قيمتها وجمالها، وما فيها من الخير، ورأوا الناس في الوقت ذاته يصدون عنها ويعرضون; ولا يرون ما فيها من الخير والجمال. ولا يستمتعون بما فيها من الحق والكمال.

وأولى أن يدرك الدعاة هذه الحقيقة التي واسى بها الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم، فيبلغوا دعوتهم؛ باذلين فيها أقصى الجهد، ثم لا يأسوا بعد ذلك على من لم يقدر له الله الصلاح والفلاح (إن الله عليم بما يصنعون)!

وهو يقسم لهم الهدى أو الضلال وفق علمه تعالى بحقيقة صنعهم. والله يعلم هذه الحقيقة قبل أن تكون منهم، ويعلمها بعد أن تكون، وهو يقسم لهم وفق علمه الأزلي؛ ولكنه لا يحاسبهم على ما يكون منهم إلا بعد أن يكون.

حسرته صلى الله عليه وسلم من مسارعة الكفرة في الكفر

ومما يدخل في سياق ما مضى: حزنه صلى الله عليه وسلم في مسارعة الجرآء باقتحام باب الكفر والمحادة لله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ ظلمًا وعلوًّا، واستكبارًا في الأرض، ومكر السيئ، كما قال تبارك وتعالى: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر؛ إنهم لن يضروا الله شيئًا، يريد الله ألا يجعل لهم حظًّا في الآخرة، ولهم عذاب عظيم) آل عمران:176.

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله في المنار:

لما كان من فوز المشركين في أحد، وما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين أظهر بعض المنافقين كفرهم، وقالوا: لو كان محمد نبيًّا ما قتل، وغير ذلك، وما سارع هؤلاء في إظهار ما يسرون من الكفر، وتثبيط المؤمنين عن نصر الإيمان إلا لظنهم أن المسلمين قد قضي عليهم، وقد كان هذا مما يحزن النبي صلى الله عليه وسلم!

فكان من تسلية التنزيل له في هذا السياق قوله عز وجل: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) كما كان يسليه عما يحزنه من إعراض الكافرين عن الإيمان، أو طعنهم في القرآن، أو في شخصه صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى: (ولا يحزنك قولهم؛ إن العزة لله جميعًا) يونس:65 وقوله: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا) الكهف:6، وقوله: (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فاطر:35.

أو المراد من السياق تسليته صلى الله عليه وسلم عما ساءه وأحزنه من اهتمام المشركين بنصرة شركهم، ومعاودتهم للقتال بعد أحد في حمراء الأسد، أو بدر الصغرى؛ لولا خذلان الله لهم. وقد روي القول بتفسير (الذين يسارعون في الكفر) بالمنافقين عن مجاهد، وكذا قال في

(الذين اشتروا الكفر بالإيمان) في الآية التالية لهذه الآية، وقيل: هم المرتدون خاصة. وروي عن الحسن: أن الذين يسارعون في الكفر هم الكفار، قالوا: المسارعة فيه هي الوقوع فيه سريعًا.

وقال الأستاذ الإمام: المسارعة في الكفر هي المسارعة في نصرته، والاهتمام بشؤونه، والإيجاف في مقاومة المؤمنين! وما كل كافر يسارع في الكفر؛ فإن من الكافرين القاعد الذي لا يتحرك لنصرة كفره، ولا لمقاومة المخالف له فيه. والمسارعون المعنيون هنا: هم أولئك النفر من المشركين، كأبي سفيان ومن كان معه من صناديد قريش. وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بهم المنافقون. (إنهم لن يضروا الله) تعليل للنهي عن الحزن، وقوله: (يريد الله) إلخ. بيان لكونهم يضرون أنفسهم ولا يضرونه تعالى، وجعله الأستاذ الإمام تعليلًا آخر، إذا قال ما مثاله: فإن كنت تحزن عليهم رحمة بهم وشفقة عليهم، لأن النور بين أيديهم وهم لا يبصرون، والهداية قد أهديت إليهم وهم لا يقبلون، وتطمع في هدايتهم وترجوها، وكلما رأيت منهم حركة جديدة في الكفر، حدث لك حزن جديد، فعليك ألا تحزن أيضًا.

ولكن هذا لا ينطبق إلا على من ماتوا على الكفر؛ فالأظهر أن الآية في مردة المنافقين، وإلا فهي في مجموع من كان مع أبي سفيان لا جميعهم.

الحزن والضيق من أفعال الكفرة وما ينتظرهم من البلاء

ومن أسباب ضيقه وحزنه وألمه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه:

مكر الكفار، وعنادهم، وأفعالهم الشنيعة ضد الإسلام والمسلمين، وأقوالهم المتجرئة العنيفة العنيدة الجحود، لهذا نهاه الله تعالى أيضًا – كما في السابق – عن الحزن والضيق والتحسر، في غير موضعه؛ كما قال تعالى: (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون* فسبح بحمد ربك

وكن من الساجدين* واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) الحجر:97–99، وكما قال تعالى: (واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق مما يمكرون) النحل:127.

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واصبر يا محمد على ما أصابك من أذى في الله.(وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ) يقول: وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله، وتوفيقه إياك لذلك (وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) يقول: ولا تحزن على هؤلاء المشركين الذين يكذّبونك وينكرون ما جئتهم به في آن ولَّوا عنك، وأعرضوا عما أتيتهم به من النصيحة (وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) يقول: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل، ونسبتهم ما جئتهم به إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة، مما يمكرون: مما يحتالون بالخدع في الصّد عن سبيل الله، من أراد الإيمان بك، والتصديق بما أنزل الله إليك.

وقال في فتح القدير: ثم أمر الله سبحانه رسوله بالصبر فقال: (واصبر) على ما أصابك من صنوف الأذى (وما صبرك إلا بالله) أي بتوفيقه وتثبيته، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء، أي: وما صبرك مصحوبًا بشيء من الأشياء إلا بتوفيقه لك، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثم نهاه عن الحزن فقال (ولا تحزن عليهم) أي على الكافرين في إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أحد؛ فإنهم قد أفضوا إلى رحمة الله، (ولا تك في ضيق مما يمكرون) ....

قال الفراء: الضَّيق ما ضاق عنه صدرك، والضِّيق ما يكون في الذي يتسع مثل الدار والثوب، وكذا قال الأخفش!

وهو من الكلام المقلوب، لأن الضيق وصف للإنسان يكون فيه، ولا يكون الإنسان فيه، وكأنه أراد وصف الضيق بالعِظم حتى صار كالشيء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه، ومعنى (مما يمكرون) من مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان.

غم النبي صلى الله عليه وسلم بالموت وسكراته

ومما اغتم به صلى الله عليه وسلم في الدنيا، أو بداية عهده بالآخرة، ما عاناه – بأبي وهو وأمي، ونفسي، وأهلي أجمعين – أمر سكرات الموت؛ ففي البخاري عن سيدتي أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق، وسيدي ابن عباس، رضي الله عنهم أجمعين، أنه: لما نزل برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، طَفِقَ يَطرَحُ خَمِيصَةً له على وجهِه، فإذا اغتَمَّ كشَفها عن وجهِه، فقال وهو كذلك: (لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارَى، اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهم مساجدَ)؛ يُحَذِّرُ ما صَنعوا.

وفي البخاري أيضًا عن الصديقة رضي الله تعالى عنها قالت: إن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كان بين يديه رَكْوَةٌ، أو: عُلبةٌ فيها ماءٌ – يشُكُّ عمرُ – فجعل يُدخِلُ يدَه في الماءِ، فيمسحُ بها وجهَهُ، ويقولُ: لا إله إلا الله، إن للموتِ سَكَراتٍ. ثم نَصبَ يدَه فجعل يقولُ: في الرفيقِ الأعلى، حتى قُبِضَ ومالت يدُه.

وفي السلسلة الصحيحة عن سيدي أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنه شهدَ جنازةً صلَّى عليها مروانُ بنُ الحكمِ، فذهب أبو هريرةَ مع مروانَ حتى جلسا في المقبرةِ، فجاء أبو سعيدٍ الخُدريُّ فقال لمروانَ: أَرِني يدَكَ، فأعطاه يدَه، فقال: قُمْ! فقام، ثم قال مروانُ لأبي سعيدٍ: لمَ أَقَمْتَني؟ قال: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا رأى جنازةً قام، حتى يُمَرَّ بها، وقال: (إنَّ للموتِ فزَعًا) فقال مروانُ أصدَقَ يا أبا هريرةَ؟ قال: نعم، قال: فقال ما منعَك أن تحدِّثَني؟ قال: كنتَ إمامًا فجلستَ، فجلستُ!

الخطاط مختار شقدار

حسرات الصحابة

رضوان الله تعالى عليهم

حسرات الصحابة رضوان الله تعالى عليهم

وكان للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حسراتهم وغمهم في أحوال تليق بهممهم، وعملهم، وقربهم من سيدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، ليست غالبًا من هموم الدنيا ولعاعاتها وأعراضها الزائلة، بل ربما اغتموا، وتندموا، وأسفوا؛ لفوات خير ممن خير الآخرة ، أو لوقوع أذىً بالدين، أو ضر بالمسلمين؛ وذلك في مواقف نجليها على النحو الآتي:

الحسرة على فوات حظهم من الإسلام:

مما تحسر عليه بعض الصحابة خوف أحدهم من أن يفوته الإسلام كله فيهلك: ومن ذلك ما أخرجه الوادعي في الصحيح المسند بسند رجاله رجال الصحيح، عن سيدي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا:

كانَ رجلٌ منَ الأنصارِ أسلَمَ، ثمَّ ارتدَّ، ولحقَ بالشِّركِ، ثمَّ تندَّمَ فأرسلَ إلى قومِهِ، سَلوا لي رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ فقالوا: إنَّ فلانًا ندمَ، وإنَّهُ أمرَنا أن نسألَكَ: هل لَهُ من توبةٍ؟ فنزلت: (كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات، والله لا يهدي القوم الظالمين* أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها، لا يخفف عنهم العذاب، ولا هم ينظرون* إلا الذين تابوا من بعد ذلك، وأصلحوا؛ فإن الله غفور رحيم) آل عمران:86-89، فأرسلَ إليهِ فأسلمَ!

الحسرة على التخلف عن الركب وخشية الانتكاس:

ومما كان يتحسر عليه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أن يغضب الله تعالى عليهم، بتقصير، أو إساءة، فيخرجوا من الإيمان، فيهلكوا، ومن أبرز النماذج في ذلك ما حصل مع الثلاثة الذين خُلفوا، كعب بن مالك، وهلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن الربيع العامري رضي الله تعالى عنهم – وحديثهم طويل، أورده على طوله لكونه حافلاً بالدلالات المتعلقة بموضوعنا، وق ورد في الصحيحين عن عبد الله بن كعب بن مالك رضي الله عنهما قال:

سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك ؛ غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنه، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها!

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة. والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفازًا، واستقبل عدوًّا كثيرًا؛ فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ – يريد بذلك الديوان – فقل رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل!

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر! فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت!

فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، ثم غدوت فرجعت، ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم – فيا ليتني فعلت – ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم

يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء!

ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ قال رجل من بني سلمة : يا رسول الله: حبسه برداه، والنظر في عطفيه! فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم!

فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضًا يزول به السراب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون!

فقال كعب بن مالك فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غدًا؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي!

فلما قيل لي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادمًا زاح عني الباطل؛ حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه. وصبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس!

فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له – وكانوا بضعة وثمانين رجلا – فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت!

فلما سلمت تبسم صلى الله عليه وسلم تبسم المغضب، ثم قال: (تعال).

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: (ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك)؟

قال: قلت: يا رسول الله: إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا؛ ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله! والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق؛ فقم حتى يقضي الله فيك.

فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا؛ لقد عجزت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون!؟ فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك!

قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي! ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثلما قلت، فقيل لهما مثلما قيل لك قال قلت من هما قالوا مرارة بن الربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي! فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة! فمضيت حين ذكروهما لي!

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف!

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة؛ فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان! وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر؛ فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني!

حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة – وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي – فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام!

فقلت له: يا أبا قتادة : أنشدك بالله هل تعلمن أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته، فسكت، فعدت، فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم! ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار!

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام – ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة – يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتابًا من ملك غسان – وكنت كاتبًا – فقرأته، فإذا فيه: أما بعد: فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك!

فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء، فتياممت بها التنور، فسجرتها بها.

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك! فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها فلا تقربنها، فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك! فقلت لامرأتي الحقي: بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر!

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله: إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم؛ فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك!

فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا! فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك؛ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه! فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله

عليه وسلم، وما يدريني ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟!

فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا.. ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا! فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا – قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت – سمعت صوت صارخ أوفى على سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك: أبشر!

فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض رجل إلي فرسًا، وسعى ساعٍ من أسلم قِبلي، وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس!

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني فنزعت له ثوبيَّ، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة، ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد، وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني – والله ما قام رجل من المهاجرين غيره – فكان كعب لا ينساها لطلحة!

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال – وهو يبرق وجهه من السرور –: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)! فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟! فقال: لا؛ بل من عند الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه، كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك! فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك بعض مالك؛ فهو خير لك، فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر: وقلت: يا رسول الله: إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، فوالله ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي!

فأنزل الله عز وجل (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ، الذين اتبعوه في ساعة العسرة، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم؛ إنه بهم رؤوف رحيم* وعلى الثلاثة الذين خلفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم....) حتى بلغ (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال كعب : والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا.

الحسرة على فوت الحظ في خدمة الإسلام:

ومن أعجب ما تندم عليه أحدهم موقف سيدنا ورقة بن نوفل رضي الله تعالى عنه – وفي إثبات الصحبة له نظر، كما قال الإمام ابن حجر رحمه الله – الذي توقع ما يلحق النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى، وود لو كان معه لينصره: ففي البخاري عن أم المؤمنين سيدتي عائشة رضي الله تعالى عنها قالت:

كانَ أوَّلُ ما بُدِئَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الرؤيا الصادقةُ في النومِ، فكانَ لا يرَى رؤيَا إلا جاءتْ مثلَ فَلَقِ الصُّبحِ. ثم حُبِبَ إليهِ الخَلاءُ، فكانَ يلْحَقُ بغارِ حِرَاءٍ، فيَتَحَنَّثُ فيهِ – قالَ: والتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ – الليالِيَ ذواتِ العددِ، قبْلَ أن يَرجِعَ إلى أهلِهِ، ويَتَزَوَّدُ لذَلِكَ، ثمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ، فيَتَزَوَّدُ بمثْلِهَا، حتى فَجِئَهُ الحقُّ وهوَ في غَارِ حِرَاءٍ، فجاءَهُ المَلَكُ فقالَ: اقرأْ، فقالَ

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (ما أنَا بِقَارِئٍ). قالَ: (فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتى بلغَ مني الجَهدَ، ثم أرسلَنِي فقالَ: اقرأْ، قلتُ: ما أنَا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانيةَ حتى بلَغَ مني الجَهدَ، ثم أرسلَني فقالَ: اقرأْ، قلتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخذَنِي فَغَطَّنِي الثَالِثَةَ حتى بلَغَ مني الجَهْدَ، ثمَّ أرسلَنِي فقالَ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ). الآياتِ إلى قَوْلِهِ: (عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ). فرجَعَ بهَا رسولُ اللهِ صلَى اللهُ عليهِ وسلمَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حتى دَخَلَ على خَدِيجَةَ، فقالَ: (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي) فَزَمَّلوهُ حتَّى ذهَبَ عنهُ الروعُ. قالَ لخَدِيجَةَ رضي الله عنها: (أيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي، لقدْ خَشِيتُ على نفسِي). فأخبرَهَا الخَبَرَ، قالتْ خَدِيجَةُ: كلَّا، أَبْشِرْ، فواللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أبدًا، فواللهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرحِمَ، وتصدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نَوَائِبِ الحقِّ. فانْطَلَقَتْ بهِ خديجةُ حتَّى أَتَتْ بهِ وَرَقَةَ بنَ نَوْفَلٍ، وهوَ ابنُ عمِّ خديجَةَ أَخِي أبِيهَا، وكانَ امرأً تَنَصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وكانَ يكْتُبُ الكتابَ العربِيَّ، ويكتُبُ من الإنجيلِ بالعربيةِ ما شاءَ اللهُ أن يكتُبَ، وكانَ شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالتْ خديجةُ: يا بنَ عَمِّ، اسمَعْ من ابْنِ أخِيكَ، قالَ ورَقَةُ: يا ابنَ أخِي، ماذا تَرَى؟ فأَخْبَرهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خَبَرَ ما رأَى، فقالَ ورَقَةُ:

هذا النَّامُوسُ الذي أُنزِل على موسَى، لَيْتَنِي فيهَا جذَعًا، ليتَنِي أكُونُ حيًّا، حين يخرجك قومك، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ). قالَ وَرَقَةُ: نَعمْ، لم يأتِ رجلٌ بمَا جِئْتَ بهِ إلا أُوذِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَومُكَ حيًا أنْصُرُكَ نصرًا مُؤَزَّرًا. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ.....

الحسرة على معرفة القبول من عدمه:

ومما كان يتحسر عليه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم: جهلهم بأمر قبول الأعمال أو ردها؛ فهم كانوا وجلين، يتشوفون للجنة، ويخافون التقصير – على ما قدموا رضي الله عنهم، ورغم شهادات الله تعالى ونبيه صلى الله عليه و سلم لمجموعهم – ففي البخاري عن سيدي ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: صلَّيْتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ركعتَينِ، ومعَ أبي بكرٍ

رضيَ اللهُ عنهُ ركعتينِ، ومعَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ركعتينِ، ثمَّ تَفَرَّقَت بكمْ الطُّرُقُ، فيَا ليتَ حَظِّي من أربعِ ركعتَانِ مُتَقَبَّلَتَانِ!

وفي عارضة الأحوذي بسند صحيح: قال عمر لأبي موسى– رضي الله تعالى عنهما – ليت أنه يرد لنا ما عملناه مع رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، وخرجنا بما علمناه بعد كفافًا!

فقال أبو موسى رضي الله تعالى عنه: قد طبنا بعده، وفعلنا، وفعلنا، فذكر طاعتهم!

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: ليت ذلك مع رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم يرد لنا، وخرجنا مما بعده كفافًا!

فقال ولد لأبي موسى لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهم: أبوك والله – يعني عمر – أفقه من أبي، يعني أبًا موسى!

الحسرة من غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ومما كان يتحسر عليه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ويخافون: حذرهم من إغضابه صلى الله عليه وسلم، أو إيذائه، بكلمة أو فعل أو إشارة؛ ففي البخاري عن سيدي زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: كنتُ معَ عمِّي فسمِعتُ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ بنِ سَلولٍ يقولُ: (لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رسولِ اللهِ حتى يَنفَضُّوا) و(لئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ ليُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ)!

فذكَرتُ ذلك لعمِّي، فذكَر عمِّي للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدعاني فحدَّثْتُه، فأرسَل إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ وأصحابِه، فحلَفوا ما قالوا، وكذَّبَني النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصدَّقَهم، فأصابَني غَمٌّ لم يُصِبْني مثلُه قَطُّ، فجلَستُ في بيتي، وقال عمِّي: ما أرَدتَ إلى أن كذَّبَك النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَقَتَك؟ فأنزَل اللهُ تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ). فأرسَل إليَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقرَأها، وقال: (إنَّ اللهَ قد صدَّقَك).

وسيأتي حديث سيدي كعب بن مالك وغيره رضي الله عنهم حول هذا المعنى.

التحسر لنقص النفقة، وفوات الخير

ومما تحسر عليه بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم عجزهم عن اللحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم، ونصرة الدين، وإجابة الداعي، كما حصل مع أولئك النفر الذي عجزوا عن النفقة للغزو ولم يجد المصطفى صلى الله عليه وسلم ما يحملهم عليهم فكان أن: (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع؛ حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون) التوبة:92.

قال صاحب المنار (باختصار):

أي: انصرفوا من مجلسك وهم في حال بكاء شديد، هاجه حزن عميق، فكانت أعينهم تمتلئ دمعًا، فيتدفق فائضًا من جوانبها تدفقًا، حتى كأنها ذابت فصارت دمعًا، فسالت همها (حزنًا) منهم وأسفًا ألا يجدوا ما ينفقون أي: على عدم وجدانهم عندك ولا عندهم ما ينفقون، ولا ما يركبون في خروجهم معك؛ جهادًا في سبيل الله، وابتغاء مرضاته.

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن ينبعثوا غازين، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال: (والله لا أجد ما أحملكم عليه) فتولوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملًا، فأنزل الله عذره: (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم)!

وخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه فقال: (لا أجد ما أحملكم عليه) فأنزل الله: (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم...) الآية. وذكر البطون التي ينسبون إليها، وهنالك روايات أخرى في عددهم وبطونهم عند ابن إسحق وغيره، وأنهم كانوا يسمون البكائين!

والحكمة في التعبير بالإتيان لأجل الحمل، والاعتذار عنه بعدم وجدان ما يحمل عليه دون ذكر جنسه من راحلة ودابة، هي إفادة العموم فيما يحمل عليه مريد السير؛ فتدخل فيه مراكب هذا الزمان، من مراكب النقل البرية والهوائية والبحرية، ويتحقق العذر بفقد ما يحتاج إليه منها في

كل سفر بحسبه، وفقد العذر بوجوده، فوجود الخيل والجمال والبغال لا ينفي العذر في السفر الذي يقطع في القطارات الحديدية أو السيارات، أو المناطيد أو الطيارات.

الحسرة على فوت ترك الوطن:

ومما تحسر عليه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مغادرة الوطن والأهل تحت وطأة المطاردة والتعذيب والحرب على الإسلام وأهله، ففي البخاري عن سيدتي أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها:

لمَّا قدِمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المدينَةَ وُعِكَ أبو بكرٍ وبلالٌ، فكانَ أبو بكرٍ إذا أَخَذَتْهُ الحمَّى يقولُ:

كلُّ امرئٍ مُصْبِحٌ في أهْلِهِ ****** والموت أدنى من شراك نعله

وكانَ بلالٌ إذا أقْلَعَ عنهُ الحمَّى يرْفَعُ عَقِيرَتَهُ يقولُ:

ألا ليتَ شِعْرِي هلْ أَبِيتَنَّ ليلةً ****** بـوادٍ وحـولِي إذْخِـرٌ وجَلِيـلُ

وهلْ أَرِدَنَّ يومًا مِيَاهَ مَجَـنَّةٍ ****** وهلْ يَبْدُوَنَّ لي شَامَةٌ وطَفِيلُ

ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: اللهمَّ حَبِبْ إلينَا المدينةَ كحُبِّنَا مكةَ أو أَشَدَّ، اللهمَّ بارِكْ لنَا في صَاعِنَا وفي مُدِّنَا، وصَحِّحْهَا لنَا، وانْقُلْ حُمَّاهَا إلى الجُحْفَةِ!

الحسرة على الغلو والمشقة على النفس:

ومما ندم عليه بعض الصحابة رضوان الله عنهم وتأسف: مشقة بعضهم على نفسه في العبادة؛ ففي البخاري ومسلم عن سيدي عمرو بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال:

قال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (يا عبدَ اللهِ: ألم أُخبَرْ أنك تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ)!

فقُلْتُ: بلَى يا رسولَ اللهِ، قال: (فلا تَفعَلْ، صُمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَمْ؛ فإن لجسدِك عليك حقًّا، وإن لعينِك عليك حقًّا، وإن لزَوجِك عليك حقًّا، وإن لزَورِك عليك حقًّا، وإن بحَسْبِك أن تصومَ كلَّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ، فإن لك بكلِّ حسنةٍ عشْرَ أمثالِها، فإن ذلك صيامُ الدهرِ كلِّه)!

فشَدَّدْتُ فشُدِّدَ عليَّ؛ قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إني أَجِدَ قوةً؟.

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (فصُمْ صيامَ نبيِّ اللهِ داودَ عليه السلامُ ولا تَزِدْ عليه).

قُلْتُ: وما كان صيامُ نبيِّ اللهِ داودَ عليه السلامُ؟.

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (نِصفَ الدهرِ).

فكان عبدُ اللهِ يقولُ بعدَما كَبِرَ: يا ليتَني قَبِلْتُ رُخصَةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. :

الحسرة من عقبى الملاحاة والجدال:

ومما ندم عليه بعض الصحابة رضوان الله عنهم وتأسف: خوف عقبى الافتئات والجدال؛ ففي البخاري عن سيدي أبي الدرداء لرضي الله تعالى عنه قال: كانت بين أبي بكرٍ وعُمَرَ محاورةٌ، فأغضَب أبو بكرٍ عُمَرَ، فانصَرَف عنه عُمَرُ مُغضبًا، فاتَّبَعه أبو بكرٍ يَسأَلُه أن يستغفِرَ له فلم يَفعَلْ، حتى أغلَقَ بابَه في وجهِه، فأقبَل أبو بكرٍ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقال أبو الدَّرداءِ: ونحن عِندَه، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (أما صاحبُكم هذا فقد غامَر)!

قال: وندِم عُمَرُ على ما كان منه، فأقبَل حتى سلَّم وجلَس إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقصَّ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الخبرَ.

قال أبو الدَّرداءِ: وغضِب رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجعَل أبو بكرٍ يقولُ: واللهِ يا رسولَ اللهِ، لأنا كنتُ أظلَمُ! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (هل أنتم تارِكونَ لي صاحِبي، هل أنتم تارِكونَ لي صاحِبي، إني قلتُ: يأيُّها الناسُ، إني رسولُ اللهِ إليكم جميعًا، فقلتُم: كذَبتَ، وقال أبو بكرٍ: صدَقتَ)!

من أسباب حسرات البشر الآخرين

من أسباب حسرات البشر الآخرين

وبجانب الأسباب الأخرى يتحسر البشر ويتأسفون في دنياهم لأسباب أخرى، أسوق بعضها من خلال النصوص القرآنية والنبوية فتأمل:

الحسرة عند نزول عذاب الدنيا:

ومن مواطن الحسرة حسرة بعض المعاندين أعداء الأنبياء، الذين أنذروا بنزول العذاب عليهم، فكذبوا بالنذر، واستنكفوا أن يتبعوا رجلًا منهم، فلما حان وقت العذاب، ورأوا عقوبة الله تعالى منصبة عليهم، من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، قالوا آمنا برب العالمين، ولات ساعة مندم! يقول الله عز من قائل: (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة، وأنشأنا بعدها قومًا آخرين* فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون* لا تركضوا، وارجعوا إلى ما أترفتم فيه، ومساكنكم لعلكم تسألون* قالوا: يا ويلنا إنا كنا ظالمين* فما زالت تلك دعواهم؛ حتى جعلناهم حصيدًا خامدين) الأنبياء:11-15

جاء في أيسر التفاسير لشيخي أبي بكر الجزائري رحمه الله تعالى:

يقول تعالى منذرًا قريشًا أن يحل بها ما حل بغيرها، ممن أصروا على التكذيب والعناد (وكم قصمنا) أي أهلكنا وأبدنا إبادة كاملة (من قرية) أهل قرية (كانت ظالمة) أي كان أهلها ظالمين؛ بالشرك والمعاصي والمكابرة والعناد، (وأنشأنا بعدها قومًا آخرين) هم خير من أولئك الهالكين.

وقوله تعالى: (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) أي فلما أحسَّ أولئك الظالمون (بأسنا) أي شعروا به وأدركوه بحواسهم: بأسماعهم وأبصارهم (إذا هم منها) من تلك القرية يركضون هاربين فرارًا من الموت! والملائكة تقول لهم توبيخًا لهم وتقريعًا: لا تركضوا هاربين (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) نُعِّمْتُم فيه من وافِر الطعام والشراب والكساء والمسكن والمركب (لعلكم تسألون) على العادة عن شيء من أموركم وأمور دنياكم، فكان جوابهم ما أخبر تعالى به عنهم: (قالوا يا ويلنا) أي يا هلاكنا، احضر هذا، أو آن حضورك، (إنا كنا ظالمين) أنفسنا بالشرك والمعاصي والتكذيب والعناد.

قال تعالى: (فما زالت تلك دعواهم) أي ما زال قولهم: (يا ويلنا إنا كنا ظالمين) تلك دعوتهم التي يرددونها (حتى جعلناهم حصيدًا خامدين) أي مُجتثين من أصولهم، ساقطين في الأرض، خامدين لا حراك لهم، كالنار إذا أُخمدت فلم يبق لها لهيب.

من هداية الآيات:

1 - التنديد بالظلم، وأعلى درجاته الشرك بالله.

2– جواز الاستهزاء بالمشرك الظالم إذا حل به العذاب؛ تقريعًا له وتوبيخًا.

3– لا تنفع التوبة عند معاينة العذاب؛ لو طلبها الهالكون.

4– شدة الهول ورؤية العذاب قد تفقد صاحبها رشده وصوابه، فيهْذِرُ، ولا يدري ما يقول.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) يريد مدائن كانت باليمن! والقصم الكسر؛ يقال: قصمت ظهر فلان وانقصمت سنه، إذا انكسرت. والمعني به هاهنا الإهلاك. وأما الفصم بالفاء فهو الصدع في الشيء من غير بينونة؛ قال الشاعر:

كأنه دملج من فضة نبَهٌ في ملعب من عذارى الحي مفصوم

ومنه الحديث (فيفصم عنه؛ وإن جبينه ليتفصد عرقًا) وقوله: كانت ظالمة أي كافرة؛ يعني أهلها. والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان. وأنشأنا أي أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم قومًا آخرين فلما أحسوا أي رأوا عذابنا. وقال الأخفش: أحسوا خافوا وتوقعوا. (إذا هم منها يركضون) أي يهربون ويفرون. والركض: العدو بشدة الوطء. والركض تحريك الرجل؛ ومنه قوله تعالى: (ركض برجلك) و(لا تركضوا) أي لا تفروا. وقيل: إن الملائكة نادتهم لما انهزموا استهزاء بهم، وقالت: (لا تركضوا، وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم) أي إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم، والمترف المتنعم؛ يقال: أترف على فلان أي وسع عليه في معاشه. وإنما أترفهم الله عز وجل،كما قال: (وأترفناهم في الحياة الدنيا)!

(لعلكم تسألون)أي لعلكم تسألون شيئا من دنياكم؛ استهزاء بهم؛ قاله قتادة.

وقيل: المعنى: لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به.

وقيل: المعنى لعلكم تسألون، أي تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول البأس بكم؛ قيل لهم ذلك استهزاء وتقريعًا وتوبيخًا.

(قالوا: يا ويلنا إنا كنا ظالمين) فاعترفوا بأنهم ظلموا حين لا ينفع الاعتراف. (فما زالت تلك دعواهم أي لم يزالوا يقولون: (يا ويلنا إنا كنا ظالمين) حتى جعلناهم حصيدًا أي بالسيوف، كما يحصد الزرع بالمنجل؛ قاله مجاهد. وقال الحسن: أي بالعذاب. خامدين أي ميتين. والخمود الهمود كخمود النار إذا طفئت، فشبه خمود الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات: قد طفئ؛ تشبيهًا بانطفاء النار.

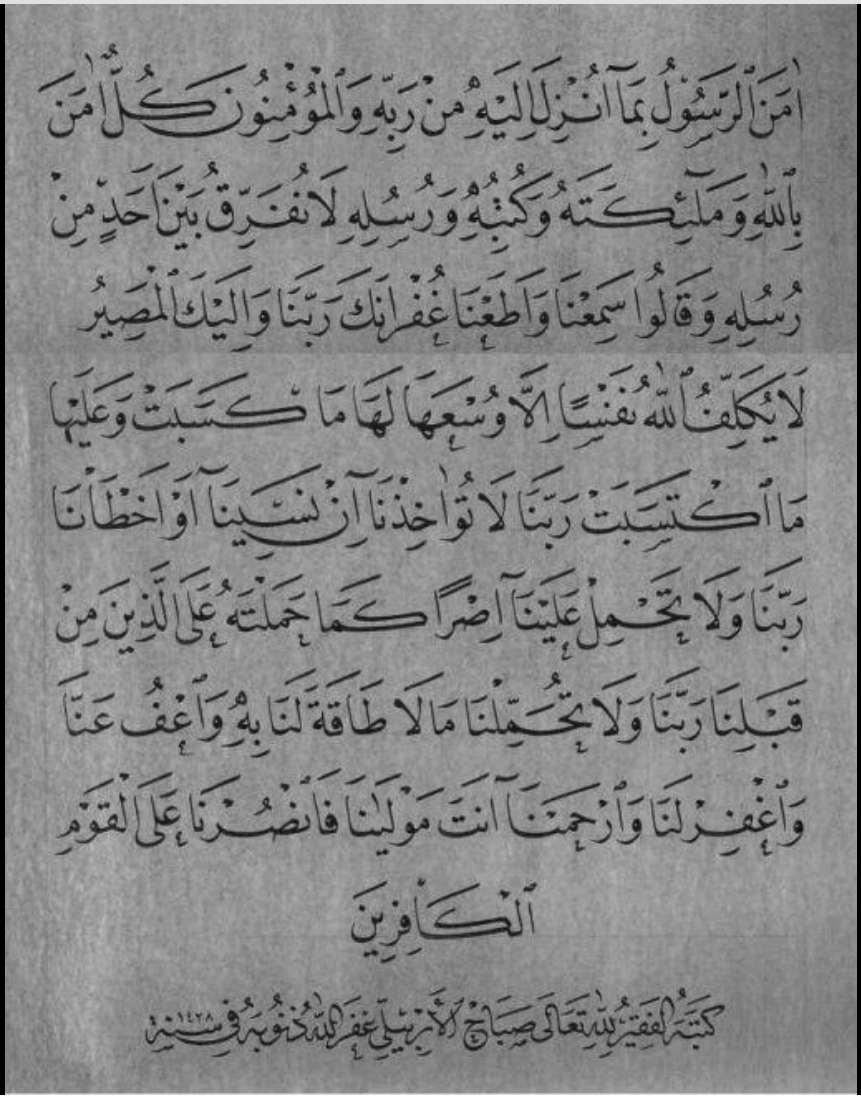

الحسرة من شدة البلاء:

ومما يتحسر عليه بعض الناس في الدنيا: شدة البلاء، وعصف النوائب بالآدمي، كما نرى من بعض المسلمين الذين فقدوا ديارهم، وأموالهم، وأبناءهم، وأوطانهم، وأمنهم، وسبل عيشهم، فقد تواترت عليهم المصائب، وانهمرت الرزايا، نعوذ بالله من جهد البلاء، وسوء القضاء ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء.

وفي مسلم عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (والَّذي نفسي بيدِهِ لا تذهَبُ الدُّنيا حتَّى يمرَّ الرَّجلُ علَى القبرِ فيتمرَّغُ عليهِ ويقولُ يا ليتَني كنتُ مَكانَ صاحبِ هذا القبرِ. وليسَ بهِ الدِّينُ إلَّا البلاءُ)!

وهو في البخاري أكثر تفصيلا وتعليلاً، ونصه: (لا تقومُ الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ، يكونُ بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ، دعوتُهما واحدةٌ. وحتى يُبعثَ دجَّالونَ كذَّابونَ، قريبٌ من ثلاثين، كلُّهم يزعمُ أنَّهُ رسولُ اللهِ، وحتى يُقبضَ العِلمُ وتكثُرَ الزلازلُ، ويتقارب الزمانُ، وتظهرُ الفِتنُ، ويكثُرَ الهرْجُ – وهو القتلُ – وحتى يكثُرَ فيكمُ المالُ، فيفيضُ حتى يُهِمَّ ربُّ المالِ من يقبلُ صدقتَه، وحتى يعرِضَه، فيقول الذي يعرضُه عليه: لا أَرَبَ لي به، وحتى يتطاولَ الناسُ في البنيانِ، وحتى يمرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ فيقول: يا ليتني مكانَه، وحتى تطلعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناسُ – يعني – آمنوا أجمعونَ، فذلك حين: (لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا) ولتقومنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلانِ ثوبَهما بينهما، فلا يتبايعانِه ولا يطويانِه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلبنِ لَقْحَتِه فلا يطعمُه، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليطُ حوضَه فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أُكْلَتَه إلى فيه فلا يطعَمُها)!

التحسر لفوات الحظ في الدنيا

أحيانًا يتحسر المرء لما فاته من حظوظه تمناها في الدنيا، ويود لو نالها؛ يصدق هذا ما قال بعض الذين حسدوا قارون، وطلبوا مثل ما عنده، كما قال تعالى على لسان بعض قومه: (فخرج

على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون؛ إنه لذو حظ عظيم) القصص:79. وكما أراد الله تعالى أن يقتلع أي احتمال للميل للدنيا والتحسر على فواتها في نفوس سيداتي أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن: (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن، ويرضين بما آتيتهن كلهن) الأحزاب:51، وقد قال تعالى عن طبيعة الإنسان: (زين للناس حب الشهوات من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث؛ ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب) آل عمران:14، ويقول تبارك وتعالى: (وإنه لحب الخير لشديد) والخير هنا المال ومغريات الدنيا.

وفي البخاري في هذا المعنى عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (لا حسدَ إلا في اثنتَينِ: رجلٌ علَّمه اللهُ القرآنَ فهو يَتلوه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، فسمِعه جارٌ له فقال: ليتَني أوتيتُ مِثلَ ما أوتيَ فلانٌ، فعمِلتُ مِثلَ ما يَعمَلُ، ورجلٌ آتاه اللهُ مالًا فهو يُهلِكُه في الحقِّ، فقال رجلٌ: ليتَني أوتيتُ مِثلَ ما أوتيَ فلانٌ، فعمِلتَ مِثلَ ما يَعمَلُ).

التحسر لخسارة المال

ومن أشد ما يتحسر عليه الناس في دنياهم فقدان المال بسبب ظاهر، أو ضياعه عن غير قصد. وقد ضرب القرآن أمثلة لمن تحسروا على ذهاب أموالهم، وضياعها هدرًا، كصاحب الجنتين الذي اغتر بما أنعم الله عليه فكفر النعمة والمنعم، وأنكر القيامة، واعتقد أنه حتى إن رجع إلى ربه فإنه سيلقى خيرًا مما له في الدنيا، مع بطره وكفره وتطاوله وعمى بصيرته، فلما رأى الغبي ما حصل لجنتيه بعد أن أصبحتا صعيدًا زلقًا، وبعد أن أصبح ماؤه غورًا أصبح (يقلب كفيه – على ما أنفق فيها – وهي خاوية على عروشها، ويقول: يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا) ولات ساعة مندم! القصة بسورة الكهف: 32–43.

وكأصحاب الجنة الذين ذكر الله تعالى حكايتهم في سورة القلم، بعد أن تآمروا على منع الفقير والمسكين حقهما، فاجتاحتها جائحة دمرتها، فأصبحت كالصريم، مدمرة محترقة، (فلما رأوها قالوا إنا لضالون* بل نحن محرومون* قال أوسطهم: ألم أقل لكم لولا تسبحون؟* قالوا:

سبحان ربنا؛ إنا كنا ظالمين* فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون* قالوا: يا ويلنا إنا كنا طاغين* عسى ربنا أن يبدلنا خيرًا؛ منها إنا إلى ربنا راغبون) القلم:26–32.

قال في التحرير والتنوير: استفاقوا من غفلتهم، ورجعوا إلى أنفسهم باللائمة على بطرهم، وإهمال شكر النعمة التي سيقت إليهم، وعلموا أنهم أخذوا بسبب ذلك، قال تعالى: (بلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ومن حكم الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها. وأفادت (لما) اقتران جوابها بشرطها بالفور والبداهة. والمقصود من هذا التعريض للمشركين بأن يكون حالهم في تدارك أمرهم وسرعة إنابتهم كحال أصحاب هذه الجنة؛ إذ بادروا بالندم وسألوا الله عوض خير.

وإسناد هذه المقالة إلى ضمير أصحاب الجنة يقتضي أنهم قالوه جميعًا، أي اتفقوا على إدراك سبب ما أصابهم.

ومعنى(إنا لضالون) أنهم علموا أنهم كانوا في ضلال أي عن طريق الشكر، أي كانوا غير مهتدين، وهو كناية عن كون ما أصابهم عقابًا على إهمال الشكر فالضلال مجاز.

وأكدوا الكلام لتنزيل أنفسهم منزلة من يشك في أنهم ضالون طريق الخير؛ لقرب عهدهم بالغفلة عن ضلالهم، ففيه إيذان بالتحسر والتندم.

و(بل نحن محرومون) إضراب للانتقال إلى ما هو أهم بالنظر لحال تبيينهم؛ إذ بيتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم، فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم. ويحتمل أن يكون الضلال حقيقيًّا، أي ضلال طريق الجنة، أي قالوا إنا أخطأنا الطريق في السير إلى جنتنا؛ لأنهم توهموا أنهم شاهدوا جنة أخرى غير جنتهم التي عهدوها، قالوا ذلك تحيرًا في أمرهم. ويكون الإضراب إبطاليًّا، أي أبطلوا أن يكونوا ضلوا طريق جنتهم، وأثبتوا أنهم محرومون من خير جنتهم؛ فيكون المعنى أنها هي جنتهم، ولكنها هلكت، فحرموا خيراتها بأن أتلفها الله.

ثلاث من حسرات الدنيا: التحسر لخسارة المساعد والمعين

جاء في مختصر البزار مجمع الزوائد بإسناد حسن ليس فيه غير سعيد بن بشير – وقد وثقه جماعة – عن سيدي سمرة بن جندب الهيثمي رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (أشد حسرات بني آدم في الدنيا ثلاث: رجل كانت له أرض تسقى، وله سانية يسقي عليها أرضه، فلما اشتد، وأخرجت ثمرتها، ماتت سانيته، فيجد حسرة على سانيته التي قد علم أنه لا يجد مثلها، ويجد حسرة على ثمرة أرضه أن تفسد قبل أن يحتال حيلة!

ورجل له فرس جواد، فلقي جمعًا من الكفار، فلما دنا بعضهم من بعض انهزم أعداء الله، فسبق الرجل على فرسه، فلما كاد أن يلحق انكسرت يد فرسه، فنزل عنه يجد حسرة على فرسه أن لا يجد مثله، ويجد حسرة على ما فاته من الظفر الذي كان أشرف عليه!

ورجل كانت عنده امرأة قد رضي هيأتها ودينها، فنفست غلامًا، فماتت بنفاسها، فيجد حسرة على امرأته يظن أنه لن يصادف مثلها، ويجد حسرة على ولده يخشى ضيعته قل أن يجد من يرضعه، قال: فهذه أكبر أولئك الحسرات).

الحسرة على ترك السؤال عن الخير

ومما يتحسر الإنسان عليه في الدنيا ترك التعلم والاستقصاء، حتى يفوته الخير، ففي صحيح النسائي عن سيدي أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (مَن احتسبَ ثلاثةً مِن صُلبِهِ، دخلَ الجنَّةَ) فقامَتِ امرأةٌ، فقالَت: أوِ اثنانِ؟ قالَ صلى الله عليه وسلم: (أوِ اثنانِ)! قالتِ المرأةُ: يا لَيتَني قلتُ واحدًا)!

عند هذا الحد أدع القلم سائلاً ربي الكريم تبارك وتعالى أن يمن علي وعليكم برحمة عامة شاملة، ورضوان لا يسخط علينا بعده أبدًا، وفردوسًا أعلى من غير سابقة حساب ولا عذاب اللهم آمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدي رسول الله وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

أبو سهيل: عبد السلام البسيوني

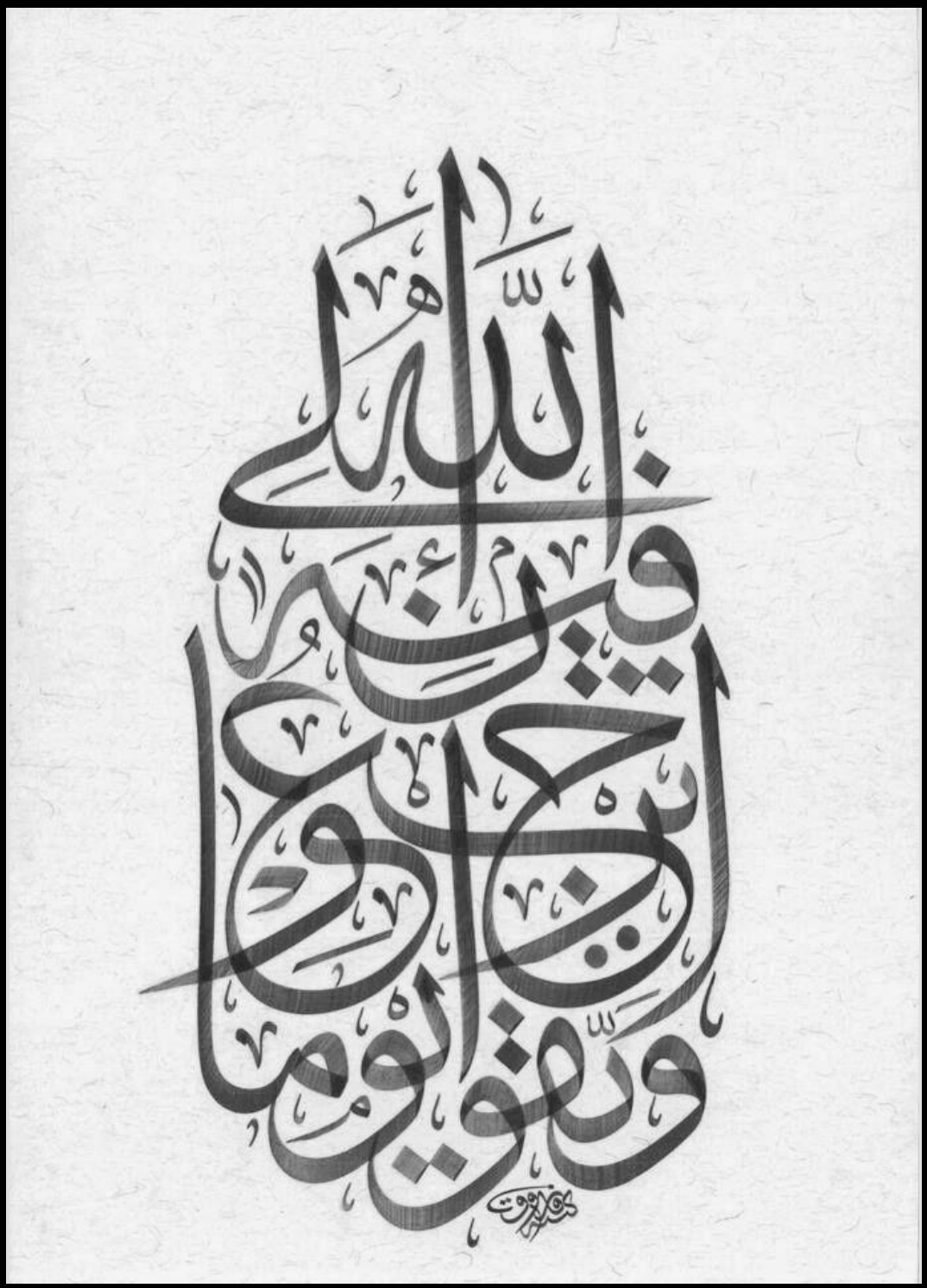

واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله.. للمبدع محمد فاروق حداد

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك